أوراق الياسمين

لطيفة خالد

© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة لدار ناشري للنشر الإلكتروني.
www.Nashiri.Net

© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب.
نشر إلكترونيا في 05/1439، 02/٢٠١٨.

يمنع منعا باتًا نقل أية مادة من المواد المنشورة في ناشري دون إذن كتابي من الموقع. جميع الكتابات المنشورة في موقع دار ناشري للنشر الإلكتروني تمثل رأي كاتبيها، ولا تتحمل دار ناشري أية مسؤولية قانونية أو أدبية عن محتواها.

الإخراج الفني: أبرار الحازمي
تصميم الغلاف: جميلة حسن
التدقيق اللغوي: خيرية الألمعي

محتــويات الكتـــاب

الإهداء ٤
المقدمة ٥
الباب الأول..... ٦
الباب الثَّاني ١٧
الباب الثّالث..... ٢٢
مراهقةٌ بريئةٌ ٢٣
الحبُّ الأوّلُ ٢٣
الباب الرّابع ٢٥
صباحاتٌ مختلفةٌ..... ٢٦
الباب الخامس ٣٠
حروفي..... ٣١
الباب السّادس ٣٣
الباب السّابع ٣٧
الباب الثّامن ٤٢
الباب التّاسع ٤٧
الباب العاشر..... ٥٠
الباب الحادي عشر..... ٥٦
الباب الثّاني عشر ٦٩
الباب الأخير..... ٧٧

أصول الكتاب

أوراق الياسمين

لطيفة خالد

الإهداء

إهدائي إلى الأجنّة في أرحام أمهاتهم، وإلى الأطفال الفاقدي حقوقهم وإلى الذّين ما يزالون يقاومون للحفاظ على طفولتهم، عندما يقع ذلك المطبوع بين أيديكم سأكون غادرت هذه الدّنيا عساني أكلمكم من هنا عبر كلماتي وأصرّح بكلّ ما هو صادق الشّعور والإحساس وأخطّ ما هو جميل وجدير أن يكون مخطوطة رائعة تخفّف من وطأة الصّعاب ومن حدّة المشاكل في وطن أرادوه مشاعاً وأردناه منزلاً وجنةً.

أحبائي عدد حروفي وحركاتي وسكوني أدعو لكم بأن تكونوا رواداً وقادةً وفاعلين على صعيد الوطن العربيّ وعلى صعيد العالم.

لطيفة خالد
عضو اتحاد الكتّاب اللّبنانيين
صيف ٢٠١٧

المقدمة

يجتاح النّفس الحزن والأسى، وينتابها الخوف والقلق، من زمن بات كلّ شيء فيه أسود مهما حاول الصّبر والإيمان تكريس الأمل وتثبيت الرّجاء وتلوين الأحلام. إلّا أنّ تزاحم الأحداث
وتردّدات خيبات الأمل وزيادة منسوب الوجع يوصلنا إلى قناعة واضحة وهي أنّ العقد انفرط وطارت زهرات الياسمين وصارت ذابلةً يابسةً تُداس وتشوّهُ وتتحوّل إلى نتوءاتٍ في عيون حكماء أُصيبوا بالعمى وفي آذان أدباء أصبحوا صمٌّ، وفي ألسنة علماء حلّت عليهم لعنة الخرس. هَزُلَ الضّميرُ وضمر القلب وتجمّد كلّ خيرٍ وتدفَّق الشّرّ من كلّ حَدْبٍ وصَوْب.

حتّى الموت صار شيطاناً والطّفولةُ جُرْماً، والإنسانية مخالفةً، والعدالةُ جنحةً.

كلّ الأمور تصغر إلّا مصيبتنا في أوطاننا تعظم، وكلّ المشاكل تهون أمام انقساماتنا وخلافاتنا وحروبنا فيما بيننا.
يا غمامةً سوداء انقشعي، اهطلي دماءً أو ماءً أو حقداً وبشاعةً، لن ترويَ ترابَ بلادي ولن أغتسلَ من مياهك،
ما أحلاه العطشُ وما أروعَ الحرمان عندما يكون في انتظار الفرج
لا بدَّ أن تُنْبِتَ حدائقُنا أزهارَ الياسمين ولا بدَّ من إعادة صياغة عقد الياسمين.
من العاصي إلى الفرات فالنّيل، على ضفاف الأنهر، لنُقِمْ أفراحَنا ولنوزّعَ الأتراحَ إلى غير رجعة.
وليس بالرّقص ولا بالغناء بل بالذّكر والصّلاة.

الباب الأول

اجتمعت العائلة، بعديدها والجميع ينتظر الجدّ العائد إليهم، ليراهم وليتعرّفوا عليه. الزّمن يمرّ بطيئاً، الصّغار لا يفقهون شيئاً، الكبار بلهفة المحتاج لحضور الجدّ المادي قبل المعنوي ينتظرون.

منهم من ذهب إلى المطار كي يأتيَ به ومنهم من ضجر من طول الانتظار في البيت القديم الذّي عملوا على تأهيله وتصليحه وإعادة فرشه كي يستقبلَ الضّيف العزيز ويكون مكاناً مريحاً للّقاء.

بدأت تتسلّل ضجةٌ آتيةٌ من الحديقة، أصواتٌ ومناقشاتٌ وكلماتُ ترحيبٍ، وأخيراً قد وصل الجدّ المنتظر.

لم يرضَ بأن يرتاحَ في غرفته؛ فضّل القعودَ معهم في الصّالة ريثما تنتهي النّسوة من تحضير العشاء.

واجتمعوا حول المائدة، وتناولوا الطّعام وجرت حواراتٌ قصيرةٌ عن الأكلِ وعن الغربِ وعن أكلاتِ أيامِ زمانٍ وكيف اعتاد الجدّ هناك وراء البحار على تناول الأطعمة الخفيفة لذلك لا يمكنه الإكثارُ والشّبعُ حتّى لا يُصاب بمرضٍ أو علةٍ هو بغنًى عنها.

نزلوا إلى الحديقة وطلبوا الشّاي وقُدِّم لهم. وفي حلقة الشّاي، سأل الجدّ عن أولادِه كلّهم، واستغربَ عدمَ حضورِ الجميع، برّرَ الأخوةُ عدمَ مجيء البقيةِ بأنّهم مرتبطون بعقودِ عملٍ في الخارجِ وبمدارسِ وجامعاتِ أولادِهم والصّيفُ قريبٌ وبالتّأكيد سوف يأتون إلى البلد ويجتمعون بالجدّ الآتي بعدَ غيابِ عقودٍ.

ومن ثمّ بدأَ يُنْصِتُ لكلّ واحدٍ منهم رجالاً ونساء ويسجّلُ في مفكّرةٍ صغيرةٍ بعضَ الملاحظاتِ. وبعد ذلك استأذنَ فقد حان وقتُ نومِه، ووَعَدَهم بإكمال الاستماع إليهم غداً صباحاً.

هدأتِ الحركةُ في البيتِ القديمِ وخَمَدَتِ الضَّوْضاءُ ونام الجميع على أحلامٍ كبيرةٍ وعلى مشاريع َغزيرةٍ معتقدين أنَّهم سوف يتلقَوْن مساعدةَ الجدِّ وأنّ الفرجَ جاءَ وكلُّ المشاكلِ الماديةِ سوف تذهبُ إلى غير رجعةٍ
بدأ الجدّ بلقاءِ عائلةِ الابنِ البكرِ، فرداً فرداً، من أصغرِها إلى كبيرِها، نساءً ورجالاً، شباباً وشيباً.

وفي أمسيتِه، جَلَسَ على كرسيّه الهزّازِ يتفكّرُ بما سَمِعَه من مصائبَ ومشاكلَ ومطالبَ وهمومٍ.

الكلّ ُيعاني من ضائقةٍ ماديّةٍ، وعنده طموحٌ أكبرُ من إمكانياتِه، والجميعُ ينتظرُ الفرجَ ويتوقَّعُ أن تُمْطِرَ السّماءُ ذهباً كي يَعْبُرَ إلى مستقبلِه الزّاهرِ وكي يحقّقَ حلمَه الكبيرَ.

وأقصى تلك الأحلامِ منزلٌ ودكّانٌ وسيّارةٌ ورصيدٌ للآخرةِ. لم يطلبْ أحدٌ منهم تنفيذَ مشروعٍ أو دعماً لتنفيذِ أفكارِه أو منحةً لتطويرِ ذاتِه.

لا زالت مطالبُهم نابعةً من بيئةٍ فقيرةٍ معدمةٍ، ليس مادياً وإنّما أخلاقياً ودينياً. الأطفالُ وحدُهم من يمكن أن تُعَدَّلَ مطالبُهم و تُنَزَّهَ طموحاتُهم وتُصَوَّبَ أحلامُهم؛ عِوَضَ الألعابِ المستوردةِ والتّكنولوجيا المتطوّرةِ، نعلّمُهم على الألعابِ الرّياضيةِ والتّمارين الجسديةِ والقراءةِ التّي صارت من نوادرِ جحا ومن أساطيرِ سندبادَ.

وقرّر الآتي سوف يُقيمُ لهم مسابقةً:" من يقرأ ُ ألفَ كتابٍ سوف ينالُ جائزةً وسوف ينالُ ألفَ..... يعلنُ عن نوعِها بعدَ حينٍ، والمسابقةُ هي للكبارِوللصّغارِ.

وأَعْلَنَ الجدُّ عن مسابقتِهِ أمامَ الملأِ وقَبْلَ أن تبدأ َ المواجهةُ الثّانيةُ.

صارَ يقرأ ُ كلَّ أمسيةٍ على مسامعِهم كتباً وروايات. في البدايةِ، أصابَ الجمعَ الملُّ وبدأوا بالتّململ. وبعدّ عدّةِ جلساتٍ، صارت الأمسياتُ أجملَ، استماعاً

وانصاتاً، ومناقشاتٍ وحواراتٍ وتكرارَ بعضِ الجملِ التّي تُحْفَرُ في الأذهانِ وتُطْبَعُ على الألسن.
- "العِلْمُ يرفعُ بيوتاً لا عمادَ لها والجهلُ يَهْدِمُ بيتَ العزّ والشّرفِ"

-" مدرسةُ العِلْمِ لا ترفضُ طالباً والكِتابُ لا يَرُدُّ صاحباً"
- "العِلْمُ نورٌ ونارٌ يُضيءُ الطَّريقَ ويَمْحو العارَ"

كلماتٌ معانيها رائعةٌ تَخْتَصِرُ أفكاراً راقيةً.

في كواليسِ النّفسِ، ذكرياتٌ جميلةٌ تجعلُنا نفرحُ أو نحزنُ. تَتَصادَمُ المشاهدُ وتَتَعانَقُ، تُمْعِنُ في تجميعِ صورٍ مُلَوَّنَةٍ بكلّ ألوانِ الحياةِ.!

وجاءَ لقاءُ الابنِ الثّاني، وكان طويلاً، حتّى الفجرِ.

وبعدَ نومٍ بضعِ ساعاتٍ، جَلَسَ الجدُّ يراجعُ محصلةَ اللِّقاءِ.
أبناءٌ يتقاتلون يتحاربون يتنافسون بدون مراعاةٍ لصلةِ الأرحامِ. الشّوارعُ والأحياءُ مدمَّرةٌ والدّماءُ تسيلُ أنهاراً وتَتَجَمَّعُ بحيراتٍ. رائحةُ الموتِ تفوحُ في كلّ الأنحاءِ.

وفَقَدَ الجميعَ الحَواسَ والإحساسَ، الشّرُ يطوفُ بين النَّاسِ، الحقدُ والحسدُ، الكرهُ والبغضُ، عناوينٌ تُلَخّصُ كلَّ الأحداث.
نظراتُ الأطفالِ تحكي للسّماءِ حكاياتٍ موجعةً، دموعُ الأمهاتِ تروي قصصَ الموتِ وبكلّ الأسباب.
غريبةٌ تلك الأخبارُ؛ عندما هاجرَ الجدُّ كان عنده ابنٌ ضال، وبعدَ هذا اللقاءِ اكتشفَ أنّهم جميعاً قد ضلّوا الطَّريقَ وأنَّهم نسَوْا اللهَ فأنساهم أنفسَهم، وأنَّهم رضخوا لواقعٍ أليمٍ.

وبعد جلسةٍ مع الذّاتِ، خَرَجَ بفكرةٍ علَّها تعيدُ لهم نعمةَ البصرَ والبصيرة ًوهي:
"إضافةً على جلساتِ المطالعةِ والحواراتِ التّي فَرَضَها الجدُّ، على الجميعِ إنجازُ

مجسماتٍ عن البلدِ الذّي يريدون العيش فيه، أو رسمُ لوحةٍ أو كتابةُ وصفٍ مُفَصَّلٍ يمكن أن يساعدَهم في الوصولِ لمبتغاهم."
كلُّ فردٍ يستطلعُ موهبتَه ويُظْهِرُها بالتّنفيذِ وبتبيانِ مطالبِه وما يحبُّه لنفسِه ولعائلتِه.

وبذلك يكون الجدُّ القادمُ من وراء ِالبحارِ قد وَضَعَ حجريْن لأساسِ المدينةِ الرّائعةِ: (القراءة والتّفكير)، والتّي سيجتمعُ فيها مع أبنائِه وأحفادِه .

أمةٌ لا تقرأُ ولا تفكّرُ فأنّى لها أن تحيا وتعيشَ. حقيقةٌ مؤلمةٌ وموجعةٌ ويبقى الحلمُ بمحو السّوادِ بشمس ِالأملِ وهذا ما حاولَ الجدُّ زرعَه في قلوبِ الأبناءِ...

وكان اللّقاءُ بين الجدِّ وبين أفرادِ العائلةِ الثّالثةِ بولدانِها وشيبِها وشبابِها ونسائِها.

الكلُّ أجمعَ على أمرٍ غريبٍ وهو أنّه يعملُ بقليلٍ من الطّاقةِ التّي لديه؛ حتّى التّلاميذُ وربّاتُ المنزلِ التّكنولوجيا هدمَتْ قواعدَ العملِ ومبادئِه في ذاتِ كلٍّ منهم.

الميلُ إلى الرّاحةِ والكسلِ والنّحو صوبَ الفرحِ المزيّفِ والسّعادةِ المفتعلةِ سماتٌ مشتركةٌ لديهم.

يعملون بأنصافِ قوّتِهم وبأجزاءِ طاقاتِهم ويجهرون بذلك ويضحكون ربما على أنفسِهم وربما على ظنونِهم بأنّهم فازوا بما هم عليه وحقّقوا نصراً مبطّناً بهزائمَ جمةٍ.

انفرطَ عقدُ اللّقاءِ وذَهَبَ كلٌّ واحدٍ إلى مكانِه وعادَ الجدُّ منهكاً ممّا في نفسِه، ومتعباً ممّا حَمِلَه من همومِهم ومشاكِلِهم. في الظّاهرِ هم مرتاحون ولكنْ في الحقيقةِ هم متقاعسون.

وفي الأمسية التّي اختارها لإعلان النّتيجةِ، احتارَ الجدُّ كيف يقرأُ عليهم ما وصَلَ إليه وكيف يُقْنِعُهم بأن يُغَيّروا طبيعةَ عملِهم وثقافةَ عيشِهم ويستعيدوا جوهرةً يملكونها تركوها مطمورةً ويعلوها التّرابُ، مهملةً متروكةً مجهولةَ القيمةِ: ألا وهي إتقانُ العملِ" إنّ اللهَ يحبُّ اذا عَمِلَ أحدُكم عملاً أن يُتْقِنَه" صَدَقَ رسولُ الله- صلى الله عليه وسلم-.

واهتدى لفكرةٍ صائبةٍ وهي إعلانٌ لكلّ أفرادِ العائلةِ: "ضاعفوا جهودَكم واقتنعوا بشحذِ كلَّ طاقاتِكم ومارسوا كلَّ معرفتِكم واستعينوا بعِلْمِكم وقوموا بأعمالِكم، وبعدَ شهرٍ راجعوني وحدّثوني عن الفرقِ من راحةِ لضمائرِكم وزيادة في إنتاجياتِكم وفي تشذيبِ أنفسِكم وفي شعورِكم بالرّضى حتّى وإن بقيَ راتبُكم هو نفسُه، وإن بقيَتْ درجاتُكم هي ذاتُها. فمن يرَ ببصيرتِه لا تعنيه ماديةُ النّظرِ ولا ينتظرُ أن يستمعَ إلى إطراءٍ أو إلى شكرٍ ولا ثناءٍ.

بعد ثلاثينَ يوماً، سوف يقومُ كلُّ واحدٍ منكم بإعطائي هديةً ولن ينتظرَ مني شيئاً فما سوف تحققونه سيغنيكم عن المالِ وعن المناصبِ. فكلّ رئيسٍ في بلدِه وكلّ متفوّقٍ في إطارِ عملِه هو الوحيدُ الذّي يحقُّ له أن يُقَيِّمَ عملَه، واللهُ المستعان. ولا تنظروا إليّ كأنّي سَاحرٌ أو نبيٌّ مرسلٌ؛ أنا الجدُّ الذّي عادَ لِيَجْمَعَكم ولِيُساعِدَكم ولِيُمِدَّكم بالقوةِ والمالِ، ولِيَمْنَحَكم لقبَ الابنِ الذّي رضيَ اللهُ عنه وأرضاه ورضيتُ أنا عنه .

تفضلوا إلى المائدةِ لنتناولَ ما منحَتْنا إياه حديقةُ المنزلِ من خضارٍ وفاكهةٍ، وممّا حَضَّرَتْه أيادي نسائِكم. بالعافيةِ للجميعِ، وأذكّرَكم بالأمورِ السّابقةِ: (القراءة والتّفكير)، واليومَ نضيفُ: (إتقانَ العملِ). ثلاثةُ ركائزَ أساسيةٍ في بناءٍ جديدٍ لثقافةِ حياتِنا الجديدةِ القديمةِ".

وحديثُ المساءِ جاءَ على لسانِ الجدِّ في حضرةِ عائلةِ أحدِ أبنائِه وأحفادِه.

وبعد أن أنصتَ إليهم، أردفَ يقولُ يا أحبائي، رأيتُكم عاملين والحماسةُ تسيّرُكم، رأيتُ قدراتِكم ومقدراتِكم ومستوى تعاطيكم مع محيطِكم إلّا إنني رأيتُ في

مسيرتِكم الفوضى القاتلةَ وهي التّي تؤثّرُ على إنتاجياتِكم وعلى تقدّمِكم وازدهارِكم.
صدّقوني رتّبوا أفكارّكم كما تنظّمون حوائجَكم وأشياءَكم. كلّما كانت الأفكارُ مرتبةً بانت بطريقةٍ صحيحةٍ وكانت فاعلةً أكثر. لا تشوّهوا عملَكم بتقاعسِكم ولا ترضَوْا بواقعِكم. بأيديكم تستطيعون تغييرَه إلى الأفضلِ والأَجْوَدِ والأَحْسَنِ!

شتّان بين الّذين يثقون بأفعالِهم ويرتقون بها وبين الذّين يفتقدون لإحساسِهم بالنّجاح بسبب فوضى الحواسِ والأفكارِ التّي تتحكّمُ بهم عن قرب.

حاولوا أن تتفادوها وأن تتجنبوا العملَ قبلَ ترتيبِ أفكارِكم وبرمجةِ قدراتِكم وتقييمِ إنتاجياتِكم مسبقاً. فمن يملكُ قوةَ العطاءِ يحقُّ له أن يكونَ لديه ميزانُ التّقييمِ طالما التّقويمُ لكلّ ما يعطيه يرتبطُ بالعقلِ والمنطقِ والعِلْمِ والعملِ.

فقط التفاتةٌ للتّنظيمِ وللتّرتيبِ ولتنظيفِ ثقافةِ العملِ في داخلِنا وبعدَ ذلك القليلُ سيصبحُ كثيراً وحتّى أصغرُ المهامِ سوف تَعْظُمُ بإنتاجياتِها بإخلاصٍ وإيمانٍ واقتناعٍ أنَّ الحفاظَ على عائلتِنا ومجتمعاتِنا وأوطانِنا يكونُ بنظافةِ الفكرِ وبترتيبِه وأناقتِه. وكلّما ارتقى ارتقيْنا وهو حتّى الآن من الثّرواتِ المغيّبةِ؛ فلِمَ لا نستعيدُها ونعملُ على الحفاظِ عليها واستغلالِها بمسالكَ منتجةٍ ومفيدةٍ.

أحبائي لا يصيبنَّكم الملُ ولا يدخلنَّ عليكم اليأسُ ولا يشعرَنَّ أحدُكم بالغبنِ؛ علاجُكم بين حنايا قلوبِكم وفي داخلِ وجدانِكم. وصدِّقوني لا تحلو الحياةُ بدون النّظامِ ولا تمضي بدون الإصرارِ على القيامِ بتغييرِ أنماطِ عيشِنا وبمضاعفةِ الجهودِ وقوةِ التّنفيذِ لنقيّدَ الفوضى بالنّظام. فبه نصلُ إلى نجاحِ خياراتِنا وتصريفِ طاقاتِنا بأمكنتِها الصّحيحةِ وبطرائقَ ميسَّرةٍ تحقّقُ للجميعِ أهدافَهم السّاميةَ وأحلامَهم الرَّاقيةَ.

ذاتَ مساءٍ، تَقَوْقَعْتُ في صومعتي، أذاكرُ أحوالَنا، وأركّزُ على نقاطِ ضعفِنا، وبلا دهشةٍ وجدْتُ أنّ الحلَ لمشاكلِنا، هو الإقرارُ باستهتارِنا والاعترافُ بالتّفريطِ بحقوقِنا.

لغتُنا أين هي؟ باستثناء المباراةِ وبضعِ أفرادٍ وقليلٍ من الملتزمين، هي في الدّركِ الأسفلِ من القاعِ مع ما يترتبُ عن ذلك من انحلالٍ فكريٍّ وانهيارٍ أخلاقيّ.

وحدتُنا لم يبقَ منها شيءٌ؛ نتمسّكُ بالخلافاتِ ونشدّدُ على الانقساماتِ والأسوأُ أنّنا ننسبُها للدّينِ.

أصالتُنا هل لا زالت تُذْكَرُ أم أنّها اختفَتْ مع كلّ الأشياءِ الجميلةِ فينا!؟

صلةُ الأرحامِ استُبْدِلَتْ بوسائلِ التَّواصلِ والميديا!

حتّى تسليتُنا صارت مهزلةَ صورٍ فكم من كلمةٍ تُكْتَبْ للتّعبير عن رأيٍّ أرعنٍ أو ادّعاءٍ باطلٍ.

ابتسامتُنا شُوّهَتْ، طيبتُنا اندثرَت، عقولُنا طارَت، قلوبُنا تجمّدَتْ.
وعلى كلّ، أملُنا بغدٍ أفضل كبيرٌ وثقتُنا باللهِ العظيمِ كبيرةٌ.فمن أوهنِ الأزمانِ سنُقادُ إلى زمنِ القوةِ والنّورِ والعزّةِ باللهِ وبالإسلامِ وبلا خجلٍ ولا وجلٍ؛ ديننُا دينُ الرّحمةِ والسّلامِ وكفى تشديقاً وزَيْفاً وتزويراً...

وعندما تشرقُ الشّمسُ في يومٍ ما سوف تشرقُ قلوبُنا وتَعكِسُ الأنوارَ في كلّ مكانٍ في الشّرقِ وفي بلادِنا العربيةِ.

حطّ المساءُ رحالَه في المدينةِ وفَرَدَ اللّيلُ جناحيْه مُعْلِناً وقتَ السّمرِ والسّهرِ والرّاحةِ بعدَ التّعبِ.

الأولياءُ مجتمعون حولَ الجدّ يتبادلون أطرافَ الحديثِ ويركّزون على مجرياتِ الأمورِ وانعكاسِ ما يحدُثُ في الوطنِ العربيّ. وتعدّدَتْ وجهاتُ النّظرِ واختَلَفَتْ الآراءُ. وجاءَ دورُ ربِّ العائلةِ وانبرى يشرحُ كيف نوحّدُ صفوفَنا ونكونُ قوةً، ونُنَزّهُ الإعلامَ من شوائبِه، ونعيد النّظَرَ في المقرّراتِ والمناهجِ الدّراسيةِ، ونجدّدَ

طرائقَ عيشِنا مع الحفاظِ على ثوابتِنا العربيّةِ والدّينيةِ وتغييرِ أنماطِ حياتِنا التّي رضينا بها من كسلٍ وخنوعٍ وقبولٍ بالدّرجاتِ السّفلى في كافةِ الأمورِ.

عقَّبَ الجدّ على كلامِه بالتّصفيقِ وأبدى ارتياحاً؛ لقد سَمِعَ منه ما لم يسمعْه من أحدٍ قَبْلِه واطْمَأَنَّ على نُضْجِ ثقافتِهم وعلى معرفتِهم لمَواطِنِ الضّعفِ والقوةِ على السّواءِ.

ويُبْنَى على الشّيءِ مقتضاه، فلْنَبْدَأْ! كلٌّ بعائلتِه ترتيباً، وتعليماً، وتحسيناً، ومزاوجةً بين الأصالةِ وبين الحداثةِ بشرطِ ألّا يُعارِضَ التّقدُمُ مبادِئَنا وأفكارَنا وتعاليمَ الأديانِ. ولِنستوحِ تربيةَ أجيالِنا من منطوقِ الحلالِ والحرامِ؛ فلا يصحّ إلّا ما حلّل اللهُ ولا يُرْفَضُ إلّا ما حرّمَ اللهُ، ولنقتدِ بمدرستِنا العظيمةِ سنةِ نبيِّنا عليه الصّلاةُ والسّلامُ. واللهِ لو تمسّكْنا بكتابِ اللهِ وسنةِ رسولِه لتَقَدَّمْنا على العالمِ ولَكُنّا بحقٍّ خيرَ أمّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ.إذا لم نمسكْ المالَ والسّلطةَ والأخلاقَ والأدبَ فعلى العربِ مليارُ سلامٍ.

وكان الجدُّ متحمساً لدرجةِ أنّه قرَّر أنْ يجولَ عليهم هو ويعيشَ حياتَهم كي يكونَ على درايةٍ بما يحصلُ عن قربٍ ليساعدَهم.عساه يلمُّ شملَهم ويجمعُ كلمتَهم ويوحّدُ صفوفَهم ويخرجُهم من الأنفاقِ المظلمةِ التّي أفنَوْا حياتَهم فيها: الانقساماتِ المذهبيّةِ القاتلةِ والضّعفِ المُسْتَشري والجهلِ المتفشّي...

وهكذا يتابعُ رسالتَه ويحاولُ أن ينفّذَ مأربَه؛ فباعتقادِه إعطاؤهم المالَ لن يفيدَهم، بل سيلزمُهم الكثيرَ من العلمِ والعملِ والثّقافةِ والأخلاق والدّينِ-وحده- يشمل كلّ ما سبق...

و إلى لقاءٍ آخر.

ذات مساءٍ، قرّرَ الجدُّ النّزولَ إلى مدينةِ أحفادِه المُحاصَرةِ حيثُ الموتُ يُسَيّطِرُ على الهواءِ والدّمارُ يحلُّ في الأَنْفسِ. هناك وَجَدَ الحياةَ بين حنايا الأكفانِ الحمراءِ ووَجَدَ أهميةً لنقطةِ الماءِ ولكسرةِ الخبزِ وللكلمةِ الطّيبةِ وللصّلواتِ.

ومن بين الرّكام ومن بين الرّحام، يهتفُ للأبناءِ ويقولُ: "المؤامرةُ علينا كبيرة والضّعفُ فينا أعظم الأسبابِ.

تَرَكْتُكُم صِغاراً ووِلْداناً، وصُرْتُم اليومَ شباباً وشيباً.
ورغمَ علمِي الكَثيرِ وخبرَتي الكبيرةِ وتجاربي في الدّنيا الواسعةِ، إلّا أنّني وقفتُ أمامَ عنفوانِكم وجبروتِ صمودِكم مذهولاً. ومهما قالوا عن الثّورة من افتراءاتٍ إنّها مصادرةٌ ومتعددةُ الرّؤوسِ وغيرُ متكافئةٍ ولكنّها واللهِ تبقى من أقدسِ الثّوراتِ.

هي فتيلٌ اشتعلَ ردّاً لكرامةِ شعبٍ مُخَدَّرٍ ونائمٍ لسنواتٍ وعقود.

واليومَ، أمامَ مزيجٍ من الأجيال، كلُّهم على قلبِ رجلٍ واحدٍ، نريدُ للوطنِ الحياةَ بعيداً عن الظّلمِ والإرهابِ. نعم الإرهاب! فلسنا كما يسمّونَنا! إنْ كنا نحنُ الإرهابيينَ، فماذا نسمّي أفعالَهم؟! من النّظامِ إلى الأحزابِ والدّولِ التّي تآمرَت والدّولِ التّي تخاذَلَت والشّعوبِ التّي لا تملِكُ إلّا الجلوسَ وراءَ الشّاشاتِ تباركُ النّصرَ والهزيمةَ على حدٍّ سواءٍ.

في أقبيةٍ حيث البناياتُ أصبحَت تلالاً من الحجارةِ، فوقَ الأشلاءِ كانَ يجلسُ الجدُّ ومعه مجموعةٌ من الأطفالِ والشّبابِ والنّساءِ، لا يهابون الموتَ.

ها هم يقتلون وبكلّ سلاحٍ فتّاكٍ ولا يخشَوْن الظالمَ يسخرون من جبروتِه ويتسلوون بأخبارِه.

وقد صوّبَ الجدُّ لبعضهم لهجتَه وصارت عربيةً ممتازةً وصحّحَ مساراتِ أفكارٍ لبعضِهم الآخرالذّي كان يعتقدُ أنّ الغربَ هو القدوةُ والمثالُ؛ فأسقَطَ من منظومةِ استراجيتِه نقطة الغاء ليصيرَ العربُ هم القدوةُ وهم المثالُ وإن كانت الصّورةُ لا تزالُ غيرُ واضحةٍ ورؤيتُها بعيدةً.

ها هي المدائنُ تتساقطُ واحدةً تلوُ الأخرى وها هم الأحرارُ يحاولون الدّفاعَ عن أرضِهم وعن ثورتِهم وعن مبادئِهم بصدورِهم العاريةِ وبأيديهم الخشنةِ.
ثورتُهم ثورةُ أبطالٍ شوّهوا فيها كلَّ بيانٍ وأشاروا عليها بكلّ بنانٍ! ها هم يبيعون الغاليَ والرّخيصَ لأجلِ حفنةٍ من المالِ ونسَوْوا أو تناسَوْا أنّهم عربٌ من سلالةِ يُعْرُبْ وأنّهم أحبابُ مُحَمَّدٍ صلّى اللهُ عليه وسلّم.
أطفالُهم رجالٌ ونساؤهم رجالٌ ورجالُهم عظماءُ.

ومع كلّ هذه الأحداثِ، كَتَبَتْ أناملُ الجدّ حكايا لكلّ إنسانٍ وفي مختلفِ الأعمارِ قصصاً من صميمِ الواقعِ. أبطالُها كلّ من صَرَخَ ودافَعَ وصَبَرَ وجاعَ من أبناءِ خالد بن الوليد وصلاح الدّين وطارق بن زياد.

ومنها قصةُ طفلةٍ أبْكَتْ العالمَ بصمودِها وبنداءاتِها وبقوةِ بلاغتِها وفصاحةِ لسانِها. وليس بالعربيةِ نَطَقَتْ وإنّما بالانكليزية كي يفهمَ العالمُ أيّ شعبٍ هنا وأيّ إنسانٍ يعيشُ.
كانت تناجي أخاها الذّي فُقِدَ تحتَ الدّمارِ وشقيقتَها التّي أَسْعَفَها الشّبابُ من بينِ الرُّكامِ وأمَّها التّي لا تزال في المشفى والوالدَ الغائبَ في معتقلاتِ النّظامِ.لقد سَمِعْتُكم ورَأيتُكم غيرَ فاعلين وانفَطَرَ القلبُ على واقعِكم الأليمِ. دعوني أسْكنُ إلى ذاتي كي أفضيَ بما بها على الورقِ، أحكي عن زمنٍ كان لكلّ ما فيه معنًى جميلٌ ومغزًى حكيمٌ ولن أدعوَكم لتعيشوا الماضي ولا التّاريخَ ولكن أروي ما أروي تبياناً لأمورٍ نسيتموها وكنتم عنها غافلين. نعم الثّورة من صلبِ الدّينِ فربُنا اللهُ حثَّنا على الثّورةِ شريطةَ أن تكونَ حقيقيةً، أن تمحوَ كلّ نَوايانا السّوداء فكما يقولُ اللهّ في كتابِه الكريمِ: ﴿لا يغيّر الله ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم﴾. فالثّورةُ ليست شعاراً نرفعُه ولكنَّها تَصْلَحُ لأن تكونَ لنا مُنْطَلَقاً على دروبِ الخلاصِ.

الباب الثَّاني

لن أغاليَ إذا ما قُلْتُ أنّنا كنا نحيا سُعَداءَ نعيشُ المودةَ والإخاءَ ونبادلُ بعضَنا كلَّ الخيراتِ. في المدنِ والقرى والضّيعِ، كان الجيرانُ والأهلُ سواء. يتشاركون الأفراحَ والأتراحَ وكلّ الأمورِ والأحداثِ .

أذكرُ أنّنا كنا في حارةٍ تجمعُ كلَّ الاتجاهات في لبنان من أصولٍ وديانات وآراء.أم حسن الجنوبية اذا كان دورُها في الخبزِ، كانت تَصْنَعُه للجميعِ وبكلّ محبةٍ والأولادُ يتسامرون على الأدراجِ وفي الممراتِ وفي السّاحاتِ وهم يحملون الرّغيفَ الشّهيَ السّاخنَ كأنّه كنزٌ أو صيدٌ يفخرون بحملِه ويتلذّذون بتناولِه. كانت هناك موقدةٌ وكانوا يصنعون من وقتٍ إلى آخر الخبزَ الطّازجَ مع أنّه يوجد أفرانٌ ولكن إحياءً لعاداتِ أهلِها وقريتِها و إسعاداً لجيرانِها.

أمّ جورج كانت تصنعُ المُرَبياتِ وتوزّعُها على الجيرانِ، لاعتقادها أنّ ابنَها يسْعَدُ في السّماءِ؛ فهوالذّي كان يحبُّ المربى. وأذكرُ يومَ مأتمه كيف وَضَعَ له والدُه نقوداً كان يجمعُها في القجةِ الفخاريةِ وقائلاً أنّه قد يحتاجُها حيث يذهب الآن، وكنا جميعاً واقِفِينَ صِغاراً وكباراً في الكنيسة نودّعُ ابنَ الجارِالصّغيرِ الذّي ماتَ بسبب المرضِ دون أن نفرّقَ مذهبَه أو دينَه فقد كان رفيقَ الدّربِ وصديقَ المشاكساتِ.

ولمّا رجعْنا سألْتُ أمي: "لماذا قالَ أبو جورج لابنِه يلْزمُك النّقودَ؟" فجاءتْ الإجابةُ درساً في الأخلاقِ وباختصارٍ قالت: "لكلٍّ دينُه ومعتقدُه؛ فهكذا يعبّرُ هوعن حبِه لولدِه وكفى!"

ولا تزال تلكَ العبارةَ في ذهنِي رغمَ مرورِ الأعوامِ والسّنينَ.
الخالةُ حنّة ممرضةٌ وكانت طبيبةَ الحيّ تداوي الجرحى من الأطفالِ الأشقياءِ وتوزّعُ الأدويةَ للعجائزِ وتساعدُ الجميعَ وخاصة إذا ما اضطروا إلى الدّخولِ إلى المشفى الحكوميّ.

أمّا أمّ إبراهيمَ كانت تدعو الجاراتِ إلى تعاونيةِ الجيشِ ليتبضّعوا معها ويؤمّنوا حاجاتِهم لأنّها أرخصُ ثمناً هناك.

ووالدتي كانت تصنعُ الزّهورات والزّعترَ بكمياتٍ كبيرةٍ. كنا نقضي فصلَ الصّيفِ بجمعِ الصَّنَوْبَرِ اليابسِ للسّخان والنّباتاتِ البريّةِ للزّهوراتِ والزّوبَعِ للزّعترِ.
وكانَ لكلّ جارٍ نصيبٌ من هذه المنتجاتِ المحضّرةِ.

لن أشبّهَ حياتَنا بالجنةِ ولكن مقارنةً بالواقعِ المريرِاليومَ كنا نعيشُ في سعادةٍ وهناءٍ وراحةٍ بالرّغمِ من الظّروفِ القاسيةِ التّي أمسيْنا عليها من فقرٍ وحربٍ وانعكاساتٍ لأطماعِ السّياسيين في الغربِ. هناك أمورٌ يتشاركُها الماضي والحاضرُ ولكنّ النّفوسَ تختلفُ.

لن يستطيعَ الجدُّ تقديمَ أيّ حلٍ ولا القيامَ بأيّ إنجازٍ فالواقعُ ضبابٌ والوطنُ خرابٌ.

ولكنّه قرّرَ على طريقةِ العربِ استذكارَ ما كان لعلّ الأجيالَ القادمةَ تعيشُ الحلوَ من الحياةِ ولو بالحكايا. على أملِ أن يمسَّنا نورٌ ويذهبَ الظّلامُ...
بالحبِّ سأبدأُ ومنه لن أنتهيَ...

كنتُ الشّابَ المجتهدَ الطّموحَ الذّي يساعدُ كلَّ تلاميذِ الحيّ والشّابَ المتفوّقَ في كلّيةِ الهندسةِ في الجامعةِ اللّبنانيةِ حصنِ العباقرةِ.
وهي كانت في الثانويةِ سمراءُ، نحيلةٌ، خياليةٌ دائماً تهربُ من الواقعِ وتعيش في قصرِها البعيدِ.

كانت كلّما دَخَلَتْ عليّ غرفتي حيث الطّاولةُ والفوضى والكتبُ المُبَعْثَرةُ، تَجِدْني غارقاً في إنجازِ واجباتي وكنتُ أرتاح بين الفَيْنةِ والأخرى معها ومع أولادِ الجيرانِ من خلالِ مساعدتِهم في حلّ مسألةٍ رياضيّةٍ أو في تفسيرِ نصٍّ علميّ مُبْهَمٍ.

ولكن هي لم تكن تَفْقَهُ شيئاً ولكأنّها ترسمُ لنا طرقاتٍ في الهواءِ وكنتُ أصرخُ في وجهِها وهي كالأميرةِ النّائمةِ لا تَأْبَهُ لصوتي ولا لانفعالاتي، فقط تبتسمُ وتدافعَ عن نفسِها: "هذه المناهجُ وُضِعَتْ لتعقيدِنا وأنا لا أحبُّ العلومَ، أحبُّ الأدبَ

والشّعرَ فقط!". وكنا ندخلُ في جَدَلٍ لا ينتهي، هي تدافعُ عن الأدبِ وأنا أتحمسُ للعلوم.
ولا أذكرُ يوماً أنّني أمسكْت يدَها أو سرقْتُ منها قبلةً، ولكنّ تعابيرَ وجهِها كانت كنشرةِ أخبارِ الصّباحِ فاضحةً تصرّحُ بأنّنا تَعانَقْنا وتَغازَلْنا وقَبَّلْنا بعضَنا البعضَ. كانت تحكي عن الحبِّ وتُسْهِبْ وتُعطيني مفاتيحَ لأُفتَحَ خزائنَ قلبِها وحلمِها وأفكارِها. هي ترسمُ قلوباً وتضعُ الأسهمَ وتكتبُ قصيدةً وتراقصُ الأحلامَ. وأنا الشّاب العاقل لمّا أرضخْ لها، كنتُ لها النّاصحَ الأمينَ فَأَخْفَيْتُ حبّي في أعماقِ الرّوحِ.

تَخَرّجْتُ من الكلّيةِ وقدّمْتُ أوراقي للسّفارةِ الكنديةِ طلباً للهجرةِ؛ ففي وطني الخبزُ لا يُشْبِعُ والمستقبلُ لا يُبشّرُ بخيرٍ.
ويومَ قُبِلْتُ، فَتَحَتْ مأتماً حقيقياً، وعدْتُها وقتَها أنّي سأرجعُ عندما أصبحُ قوياً وثرياً، لم تُصَدّقْني حينها ولكن عُدْتُ لأجلِها ولأجلِ أهلي التّعساءِ ووطني الموجوعِ.

أنا هو الجدُّ اليومَ المحتارُ وأنا الشّابُ المغتربُ الباحثُ عن الدّفاترِ والكتبِ والمكتبةِ وعن أقصوصاتٍ تركتُها يوماً في أدراجِ غرفتي على أملِ أن تكونَ خارطةَ وطني الذّي عنه أبحثُ إلى اليومِ.

وقفْتُ مسروراً وعلاماتُ الفرحِ فوق محياي هي الآن أمامي بعد عقودٍ من الزّمن. سيّدةٌ رصينةٌ تحملُ محفظةَ وتعدو أمامي كأنّها تلك التّلميذةُ الصّغيرةُ. تنهيداتٌ خرجَتْ كأنّها طبولُ المسحراتيةِ وزفةُ الأفراحِ. وبلحظاتٍ، بُنِيَتْ جسورٌ من التّلاحمِ بيننا.ركِبْنا السّيارةَ، تحَدّثت دون أن أسألَها: "جِئْتُ قبلَ أن يُتْلِفوا كلَّ آثارِنا، لم يُغْنِني أيٌّ من أشيائي إلّا تلك الأوراقُ والدّفاترُهي كلُّ ما يهمُّني فقد لخّصْتُ فيها قصةَ غرامي مع من تركَني وسافرَ!"، ابتسمْتُ وقلتُ لها: "ها أنا قد عُدْتُ ولديّ أبناءٌ وأحفادٌ وأنتِ كما رأيْتُ لديك أبناءٌ وأحفادٌ. المهم أنّنا التقيْنا.هل ما زِلْتِ تشاهدين (الوسادة الخالية)، وتردّدين مع السّت: "يا ظالمني"؟ ضَحِكْنا معاً وتابَعْتُ قائلاً: "هل تملّكيني تلك المحفظةَ أعملُ على

صياغتِها في كتابٍ؟ هذه المرة أنت من يرحلُ ويترُكُني خلفَه، فهلا تَكَرّمتِ عليّ ومَنَحْتني ذلك الشّرفَ؟"
وَصَلَت إلى المطارِوكان بانتظارِها ابنُها وابنتُها وعوائلُهما. ودّعْتُها مقبّلاً يدّها وتاركاً نظراتي في دمعاتِها ونبضاتي في قلبِها...

ورَجِعْتُ إلى غرفتي مستعجلاً كي أنهلَ من كلماتِها ومن حكاياتِ عِشْقٍ عاشَ في رحمِ الأقلامِ ولم يُبْصرْ وطناً ما زلنا نرجو الوصولَ إليه. لم أعدَّ الأيامَ ولم أعلمْ كم من الزّمنِ قَضَيْتُ بين رَشَفاتِ ذِكْرَياتٍ حلوةٍ ورائعةٍ أحيَّت في ذاتي مواقفَ وقصصاً: أولَ حديثٍ، أولَ تصريحٍ، أولَ هديةٍ، أولَ صدٍّ، أولُ احباطٍ أو كَبْحٍ لمشاعرَ غاليةٍ نفيسةٍ." فقدرُنا ألّا نتلاقى: إمّا أرحل أو أنتِ ترحلين" هكذا كَتَبْتُ لها رسالتي ومَضَيْتُ لإنجازِ مهمتي. وعدتُها أن تعيشَ كلماتُها في قصصٍ يقرأُها من شاء أن يعرفَ عن الحبّ وعن الوطنِ.

الباب الثّالث

مراهقةٌ بريئةٌ

الحبُّ الأوّلُ

النّظرةُ الأولى كانت من شرفةِ منزلِها حيث كانت تجلسُ وراءَ طاولتِها تذاكرُ وتدرسُ لامتحاناتِ الشّهادةِ المتوسّطةِ. وهو الشّابُ الأسمرُ السّاعي لقلوبِ بناتِ الحيّ يفتشُ عن فاتنةٍ تطيبُ لها نفسُه. يسهرُ في محلِ أبي درويشٍ، يضحكُ، يصرخُ، يعيشُها بالطّولِ والعَرْضِ، محبوباً من الجميعِ.

سَحَرَها وجَذَبَها ونَسِيَتْ كتبَها ودفاترَها وراحَت تستمعُ في مذياعِها لصوتِ العندليبِ يغنّي أولَّ مرة مجموعةً من الأغاني الجميلةِ عبر أثيرِ إذاعةِ (مونت كارلو)
وكانت ليلتُها مضيئةً راحَت تسرحُ مع العندليبِ فقد اكتشفَت أنّ لها قلباً ينبضُ فرحاً لرؤيةِ صلاح.

وهكذا تتالَت الأيامُ وكَبُرَتْ القصةُ وصار الحبُّ واقعاً: لقاءاتٍ ومشاويرَ، وفاحَت رائحةُ حبِّهما العظيمِ.

أجبروه على الارتباطِ بها؛ هي في الرّابعةِ عَشْرَة وهو ابنُ السّادسةِ عَشْرَة، وقُرِأَتْ فاتحتَهما ودامَت الخطبةُ ثلاثَ سنواتٍ والحبُّ لم يَدمْ سوى شهورٍ.

إذ سرعان ما اكتشفَ الحبيبُ العبءَ الذّي وَضَعَ نفسَه فيه. فهو ميكانيكيٌّ وما يجنيه لا يكفي والدتَه ولم يبقَ له إلّا ثمنُ علبةِ السّجائرِ. فلقد خَدَعَتْ نفسَها وصدّقَت أنّها تعيشُ الحبّ الأوّلَ وأنّ من واجبِ صلاحٍ أن يتحملَ طلباتِ أهلِها وارشاداتِهم وآرائِهم.

إلى أن كان يوماً اشتدَّ فيه الرّصاصُ وانهمرَت على الحيّ قنابلٌ وقذائفُ وأُصيبَت هلا بعينِها. أخذوها إلى بيروتَ وأُجْرِيَتْ لها عمليةٌ وزرعوا لها عيناً زجاجيةً.

وعندما عادَت من المستشفى وبعدَ حوالي أسبوعٍ، دعا والدُها صلاحاً وأعطاه خاتمَه وهداياه وطَلَبَ منه الصّورَ وقال له لست مُجْبَراً بأن تتزوجَ ابنتي؛ لقد أُصيبَت بعاهةٍ مستديمةٍ.

بكى وبَكَت وأبكَوْا جميعَ من معهم .
هي ارتبطَت بصديقِ والدِها وهو تَوفّى بعد انتسابِه إلى الجيشِ اللّبنانيّ .برصاصةٍ طائشةٍ.

ولمّا تقبَلْ أن تسمّيَ ابنها بغيرِ صلاحٍ.وما زالت تبوحُ بأسرارِ الحبّ الأوّلِ والنّظرةِ الأولى وكيف كانت تسترقُّ النّظرَ إليه، أو تَدَّعي بأنّها ذاهبةٌ إلى رفيقتِها وتذهبُ معه لحضورِ فيلمٍ سينما أو للسّير على الكورنيشِ. وكيف نَدِمَت على الجفاءِ الذّي حلَّ بينهما بفعلِ طولِ فترةِ الخطبةِ.

واستشهدَ صلاحٌ وحبيبتُه تعيشُ بكنفِ عائلتِها زوجةً وأمّاً، تروي غرامَها لأولادَها واليومَ لأحفادِها وتقولُ وتحكي وتزيدُ: "تشابَكت قلوبُنا وتعانقَت نظراتُنا وابتسمَت لنا الحياةُ أياماً معدوداتٍ، الشّابُ الأسمرُ أختارَني من بين كلّ حسناواتِ الحي ّأو بالأحرى أنا من اختارَه. قمةُ سعادتِنا كانت عندما نغني معًا أولَ مرةٍ "على قد الشّوق"، لقد حفظَتْ تلك الأغاني أكثر من أمثولاتِها.

والحبُّ كان سببَ رسوبِها. هي تركت الدّراسةَ وهو شبه الأميّ، لم يشجّعْها ولم تجد وقتاً للتّركيز على دروسِها؛ إذ كانت تهتمُّ بأظافرِها، بشعرِها، بفستانِها وبحذائِها، بعطرِها وقلم حمرتِها أكثر.

حبٌّ وُلِدَ على الفطرةِ، عاشَ قليلاً ولكنّني ما زلت أعيشُه وأحيا بين دفتي كتابِه.

قضاءٌ وقدرٌ وشاءَ اللهُ ألّا أموت وأن يموتَ هو كما حبِنا. ولكن سرعان ما تقمّص ذلك الحبّ الأول في حياتي من بائِها إلى يائها وألفها طبعاً للحبيبِ الأوّلِ.

الباب الرّابع

صباحاتٌ مختلفةٌ

مع العصافيرِ المُغَرِّدَةِ فَوْقَ شَجَرِ الصَّفْصَافِ، يَنْطَلِقُ مذياعُ صَاحِبِ المَطْعَمِ المُقَابِلِ لِبِنَايَتِنَا وَتَحْدِيدًا لِمَنْزِلِنَا. وَكلَّ يَوْمٍ، يضعُ سُورَةَ يوسُفَ حَتَّى- جَزَاهُ اللهُ خَيْرًا- قد حَفِظَهَا سُكَّانُ الحَيِّ كلُّهُمْ مُسْلِمُونَ وَمَسِيحِيُّونَ.

تَصْدَحُ أَصْوَاتُ النِّسْوَةِ مِنْ عَلَى الشُّرْفَاتِ
-أُمُّ سَمِيرٍ: "أُمَّ أَحْمَدٍ، هَلْ أَجِدُ عِنْدَكَ بِصِلَةً كَيْ أُنهيَ طَبْخَتِي؟"
وهاهي أُمُ سَمِيرٍ تَرْمِي لِجَارَتِهَا ثَلَاثَ بَصَلَاتٍ، اِثْنَتَيْنِ وَصَلَتَا وَاِخْتَرَقَتَا مَمَراً بَيْنَ البِنَايَتَيْنِ وَوَاحِدَةٍ سَقَطَتْ.

-أُمُّ جُورْج: "أُمَّ جَمَالٍ، هَلْ تُصَاحِبِينِي إلى السُّوقِ اِقْتَرَبَ مَوْعِدُ زِفَافِ سُعَادَ وَأُرِيدُ أَنْ أُكَمِلَ لَهَا الجِهَازَ فالوضعُ صعب؟"
ما زالت البلدُ على شفيرِ الهاويةِ والحربُ قائمةً. ومع كلِّ ذلك، حارتُنا تحافظُ على الحياةِ العادية ٍنوعاً ما...
-أُمُّ جمالٍ: "ربعُ ساعةٍ وأُنهي ترتيبَ المنزلِ وأُطفىء الغازَ تحتَ الطّبخةِ وألقاكِ في المدخلِ"
وراءَ النّافذة، جميلةٌ من حسناوات الحارةِ تغمزُ ابنَ الجيرانِ في البناءِ المقابلِ ويتواعدان بالإشاراتِ. وفي الشّارع أصواتُ الصّبيةِ يلعبون بالدّراجةِ. وشبابُ الحيّ على حالِهم واقفون مثلُ حراسِ الدّيارِ، ينظرون شزراً لكلّ غريبٍ يمرُّ ويدافعون عن ابنةِ الجيرانِ إنّ اعترضَ طريقَها أحدٌ ويفضّون نزاعاً قامَ بيْن

ولديْن. لا عملَ يشغلُهم ولا دراسة. ومع كلّ هذه الضّجة، زماميرُ السّياراتِ في الشّارع كانت دليلاً على أنّ الطّرقاتَ سالكةٌ وأنّ الوضعَ الأمنيَّ مقبولٌ.

وفي غمرةِ الأحداثِ بما يُسَمّى حربُ السّنتيْن في لبنانَ، كانَ في طرابلسَ ما يسمّى جيشُ لبنانَ العربيّ الذّي تشكّل بعدَ انقساماتٍ في صفوفِ الجيشِ اللّبنانيّ حيث نُهِبَت الثّكناتُ وأُحْرِقَت وعاثَ الجهلةُ فيها فساداً.

كانَ الجيشُ يساعدُ أهلَ المنطقةِ المتواجدِ فيها؛ ويحضرُني الحدثُ حيث ذهبوا بملّالةِ الجيشِ ليجلبوا (الدّاية)، فهناك مولودٌ سيأتي وبالفعلِ جاءت القابلةُ القانونيّةُ وعلى صوتِ القنابلِ والمتفجّراتِ أطلقَ المولودّ صرخاتِه في المنزلِ.
وكانّ الرّقمُ ثمانيةَ وقبلُه بافتتاحيةِ الحربِ جاء أخوه السّابعُ. ولا أنسى يومها كيفَ دَعَسَ العسكريُّ على رأسِ الجنودِ المنشقّين عن الجيشِ وبوحشيةٍ تامّةٍ، كرّر فعلتَهُ وراح يضربُ رأسَ الموقوفِ فيصبحُ نازفاً ويصرخُ متأوّهاً ومتألماً. كنتُ في العاشرةِ ومنذُ ذلك الوقتِ وأنا أكفرُ بالحروبِ وبروّادِها وبالعسكرِ وبالجَزمات.

كنا نقضي نهاراتِنا ولياليا على درجِ البنايةِ خوفاً من القذائفِ العشوائيةِ حيث التلفازُ وكان موحّداً ووحيداً وهو تلفزيون لبنان والقناة السّابعة: برامجُ مجلتي والرّسومُ المتحرّكةُ وأبو سليمٍ للصّغارِ والأخبارُ وأبو ملحم للكبارِ.

وكنا نتقاسمُ الخبزَ والطّعامَ والماءَ مع الجيرانِ.

ورغمَ كلّ الخوفِ، كنا ننزلُ إلى المدارسِ والجامعاتِ بلا تردّدٍ الّا إذا اضُطررْنا للمكوثِ بسببِ قطعِ الطّرقاتِ من قِبَلِ المسلحين أو بسبب القصفِ العشوائيّ.

رجالُ الحارةِ كانوا يذهبون إلى (المنية) ويأتون بالخبزِ والنّسوةُ يُحَضِّرْن الطّعامَ والحلوى بما وُجِدَ من مكوّناتٍ ويوزّعْنَه على الجميعِ.

وفي الحصارِ، كنا نتوقعُ الموتَ في أيّةِ لحظةٍ! فحتّى المنزلَ لم يعُدْ آمناً لاختراقِه من قِبَل المسلحين بالبواريدِ أو القنْصِ والتّصويبِ العشوائيّ؛ فما عدنا نستطيعُ التّنقلَ براحتِنا، وانحصرَت مشوارينا داخلَ المنزلِ بالتّنَقُّلِ فقط بين الممرِ والحمّامِ.

كان راديو التّرانزيستور مرافقي، أقلّب بإبرتِه بين الإذاعةِ والأخرى والجميعُ يدّعي الحبّ للبلدِ وكلّ واحدٍ ينتمي لحزبٍ يقاتلُ لبناءِ لُبنانَه الخاصَ به.

كبرْنا قبلَ الأوانِ ... تزوَّجَ البعضُ وسافرَ البعضُ وتركَ البعضُ وما زالت شجرةُ الصّفصافِ الشّاهدَ على أحداثٍ داميةٍ ومرعِبَةٍ وعلى علاقاتٍ إنسانيّةٍ عظيمةٍ ومواقفَ مشرّفةٍ فيما بين سكانِ الحيّ الواحدِ على تنوّعِهم واختلافاتِهم. إلى أن تفاقمَت الأحداثُ وأدخلوا الحيّ في حربِ شوارعٍ مع الحيّ المجاورِ. واحدُهم موالٍ للعسكرِ القويّ المتوحّشِ والثّاني رافضٌ لوجودِه حيث كَذَبَت الجامعةُ العربيّةُ في قراراتِها آنذاك فقامَتْ بارسالِ قواتِ رَدْعٍ سوريّة عِوَضَ القواتِ العربيّةِ.

كانوا يسوقون الرّجالَ ويعذّبونَهم ويدفنونهم أحياءً. وكانوا يقتلون الرّجلَ ويعلّقونَه ليصفى دمُّه وبعدَها يدفنونه مع غيرِه أكوامًا في تلةٍ أو في مدرسةِ "الأميركان" حيث كانوا يتحصّنون ويرموننا برصاصاتِ القنصِ ولا يمرُّ يومٌ إلّا والموتُ يجرفُ العشراتِ.

قَضَيْنا سنواتِ الحربِ بين الحارةِ وبين الضّيعةِ.

والجانبُ الجميلُ في الحيّ هو تلك المودةُ والرّحمةُ بيْنَ الجيرانِ.لا أحدٌ يسألُ عن دينِ الآخرِ ولا عن مذهبِه؛ الكلُّ متلاحمٌ والكلُّ متفهّمٌ لمبدأِ أنّها حربٌ مستوّردةٌ وأنّنا حُمّلْنا أوزارَ القضيةِ الفلسطينيّةِ وأنّنا بصددِ أن يصبحَ لبنانُ كلُّه فلسطينَ ثانيةً لولا رحمةُ ربي.

حبُّنا للوطنِ جعلَنا مهجّرين في وطنِنا من منطقةٍ إلى أخرى والكلُّ صاحبُ واجبٍ وضليعٌ بحسنِ الضّيافةِ والكرمِ وإن كان الضّيوفُ من مناطقَ متقاتلةٍ...

كان منزلُنا شبهَ مدرسةٍ يرتادُها تلاميذٌ من كلّ المراحلِ التّعليميّةِ ولكلّ من الأخوةِ والأخواتِ تلاميذُه حتّى الوالدةُ كانت تديرُ عمليةَ التّدريسِ وكان لها تلاميذُها! كان بيتُنا يخضعُ لقانونٍ صارمٍ فقد كانت- رحمَها الله- تفرضُ على كلٍّ منا أن يؤدّيَ عملاً في الأعطالِ وفي الإجازاتِ وخلال فتراتِ الانقطاعِ عن الدّراسة.

ممنوعٌ الاتكّالُ على راتبِ الوالدِ المسافرِ في الخليجِ. يجبُ أن يَحْصُلَ كلٌّ منا على مصروفِه من خلالِ عملِه.
البناتِ للتّدريسِ الخصوصيّ والصّبيةُ كلٌّ في مكانٍ: واحدٌ في الفرنِ وواحدٌ في محلِ دواليبٍ وآخرٌ في المكتبةِ وبالفعلِ هذا القرارُ عزّزَ فينا روحَ المسؤوليةِ.

وأكثرُ الأوقاتِ المسليّةِ كنا نمضيها مع القراءةِ، فمنا من يهربُ إلى تحت السّريرِ لينهيَ لغزًا بدأَ بمطالعتِه وآخرٌ يختبأُ على السّقيفةِ وفي كلّ مكانٍ طفلٌ يحملُ قصةً أو لغزًا أو روايةً.

حتّى حياكةُ الصّوفِ مفروضةٌ وحياكةُ لوحاتٍ من القماشِ (أوبييسون) والصّبيةُ يلعبون بالورقِ أو بالبرجيسِ أو بطاولةِ الزّهرِ أو بعدّةِ النّجارةِ.

لا مجالَ للفراغِ في قاموسِ حياتِنا اليوميّةِ مهما كانت تقلّباتِها من سلمٍ وحربٍ وحزنٍ وفرحٍ.

وأجملُ الأوقاتِ كان عندما نقعدُ على الشّرفةِ نتناولُ البوظةَ أو الشّوكولا أو الحاملةَ أو(نُفَصْفِصُ) البِزْرَ.

وقراءةُ القرآنِ يومُ الجمعةِ إجباريٌّ بعدَ الاستحمامِ وقصِّ الأظافرِ.

وكنا سعداءَ لولا روائحُ الموتِ المنتشرةُ في كلّ الأمكنةِ.

وارتبطَ صوتُ عبدِ الباسطِ عبدِ الصّمدِ في أذهانِنا بالموتِ حيث كانت السّياراتُ تذيعُ عن المتوفّي وتعلو بقراءةِ القرآنِ معلنةً نَعْوَةَ أحدِهم.

ورغم كلّ الصّعوباتِ، كنا نجدُ مساحةً للتّواصلِ بالأفراحِ وبالأحزانِ.

الباب الخامس

حروفي

حُرُوفي تارةً تَأْخُذُنِي إلى اللّوْنِ الأَبْيَضِ وتاراتٍ إلى اللَّوْنِ الأَسْوَدِ مُسْتَفِيدَةً مِنْ وَضَحِ النَّهَارِ وَسُطُوعِ الشَّمْسِ وَمِنْ عَتْمَةِ اللَّيْلِ وحَلْكَةِ الظَّلَامِ.

وَأَحْيَانًا تَأْخُذُنِي إلى الطَّيْفِ بِأَلْوَانِهِ المُخْتَلِفَةِ مُسْتَمَدَّةً مِنَ الزُّهُورِ تَأَلُّقَهَا وَتَنَوُّعَهَا وَجِمَالَهَا. فيتَأرجَّحُ إلْهَامِي فِي الفَضَاءِ عُلُوًّا وَانْخِفَاضًا كَأَنِّي كَوْكَبٌ يَبْحَثُ عَنْ رُكْنٍ لَهُ فِي المَدَى.

وَلَا يَلْزُمُنِي سِوَى حَوَاسٌ لَا تُشْبِهُ الحَوَاسَ، يَلْزُمُنِي عُيُونٌ وَآذَانٌ وَمَشَاعِرٌ لِلنُّفُوسِ كَيْ تُتَرْجِمَ نَبَضَاتِ قَلَمِي وَكِي تُحَدِّثَ عَنْ أَحْوَالِي.

مِنْ صَمْتِ المَلَائِكَةِ أَسْتَعِيرُ حَرَكَاتِي وَسُكُونِي وَمِنْ حَكَمَةِ الأَتْقِيَّاءِ أَتَنْشَّقُ شُجُونِي وَمِنْ بَرَاءَةِ الأَطْفَالِ أَسْتَمِدُّ رَوْعَةَ أَحَاسِيسِي. حُرُوفِي وَطَنِي وَجْنَةُ أَحْلَامِي. أَمْتَطِي قَلَمًا سَاحِرًا وَأَتَنَقَّلُ بَيْنَ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَفِي مداد الكَوْنِ الفَسِيحِ لا يَلْزَمُني عدّةٌ ولا نقودٌ ولا كنوزٌ، فقط نسيمٌ وشجرٌ وجدولُ ماءٍ ومعهم عصافيرٌ تحلّقُ وتزقزِقُ وفراشاتٌ تتنقَّلُ بيْن الزُّهورِ ونحلاتٌ ترتشفُ الرّحيقَ كي تُحَفِّزَ قلمي فيرتَشِفُ منْ مَعينِ الحبِّ والحياةِ إلهاماتِه وخيالاتِه و إبداعاتِه.

وتتساقطُ فوقَ سطّوري حروفٌ تروي حكاياتٍ عن المظلومينَ وعن العُشَّاقِ وتُنَظِّمُ أشعاراً في المديحِ والفّخرِ والرَّثاءِ، لوقْعِها دلالاتٌ وعلاماتٌ تُبَشِّرُ بحُلولِ فصلِ الإبداعِ، وهكذا تكونُ الحياةَ: قلمٌ وفكرٌ ودواة.هل أجملُ من حياةٍ مع حباتِ مطرٍ تعانقُ أزهارَ الياسَّمينِ وأوراقِهِ وتعطِّرُ الكلمات ًوتبعثُ في الأجواءِ السّعادةَ والفرحَ والهنَّاء؟!

يا رجاءَ الْحنينِ ويا قواريرَ الذّكرياتِ، يا حروفاً غنِيّةً بالمشاعرِ السّاميّةِ، ومفعمةً بالأحاسيسِ السّرمديّةِ، أتْحفي أوراقِي بأخبارٍ وأحداثٍ، تحظى برضَى اللّغةِ العَرَبِيِّةِ، وبجمالِ الفَصاحةِ الأَدَبيَّةِ وبِبَلاغَةِ المعانِي الإنسانيَّة.

تفيضُ مُخَيِلَتِي بِأبجديةٍ تُلامِسُ الشَّمسَ وتغوصُ في الأرضِ. وحانَ وقْتُ التّجلّي والرّحيلِ إلى كوكبٍ يجاورُ الأرْضَ ويُشْبِهُ المريخَ.
ومن الأرضِ تبوحُ حبًّا وحنينًا وذكرًى بعثرَها الحزنُ ولملمَها الفرحُ، رَسَمَتْ على جدرانِ الحيّ القديمِ صورًا وأشياءَ وكَتَبَتْ الكثيرَ من الكلماتِ، حتّى على أبوابِ الدّكاكينِ رَسَمَت قلوباً وعصافيرَ وأشجاراً وورودا وبحراً ومراكبَ وخطَّت اسمَه بالخطِّ العريضِ واسمَها بقلمٍ دقيقٍ.

وكانت تزورُ المكانَ كلّما اشتدَّ عليها الحنينُ وافتكرّت أنّها كانت تحبُه وأنّها تركَتْه هناك معلّقًا على جدرانِ الحيّ القديمِ. وهي ذاهبةٌ إليه كانت تحملُ له سلةَ قصائدِ غَزَلٍ عذريٍّ تتطايرُ الأشعارُ إلى كلّ الآذانِ وتُسْمِعُ حتّى الصُّمَمُ.
وهي راجعةٌ إلى ديارِها كانت تُخَبىء في جدائلِ شعرِها المنسابِ كاللّيلِ الحالكِ فراشاتٍ ملوّنةً تُزَيّنُ بها حجرتَها وطاولتَها وخزانتَها ومرآتَها. وتَضَعُ في قلبِها عينيْه النّاعستيْنِ وفي عقلِها كانت تُخْفي الحلمَ الكبيرَ.

غائبٌ حاضرٌ حيٌّ يُرزَقُ بين دفتيّ كتابِ أيامِي من العنوانِ إلى الفهرسِ. روحُ رجلٍ يستهويه الرّحيلُ والسّفرُ والتّنقّلُ من القلبِ إلى العقلِ في الصّحو وفي المنامِ، رجلٌ صارَ حلمَ فتاةٍ ما تزالُ هناك معه تستعيدُ ذكراه وتوفّيه حقَّه من الحضورِ

والوجودِ حتّى أصبحَ هو خيالٌ يقودُ كلَّ الأحلامِ. وأروعُ هذه الأحلامِ الحلمُ الكبيرُ ملكةُ القرطاسِ وملكُ القلمِ .

وكلّاهما يراعٌ يكبرُ على شجرةِ الحروفِ ويتَقَوْقَعُ شهورًا ليخرجَ طائرًا جميلاً يحلّقُ في بساتينِ الكلامِ كالنّحلاتِ التّي تتناولُ رحيقَ الزّهرِ لتصنعَ منه العسلَ أيّ الكلامَ الطيّبَ الذّي يتنامَى ليصبحَ شجراً أصلُه ثابتٌ في أرضِ الأدبِ وفروعُها في سماء الإبداعِ ترتفعُ.

الباب السّادس

وكان اللّقاء في غياهب الزّمان. كان هناك حبيبان فرّقَتْهما الأيامُ والظّروفُ والحروبُ.

ولمّا تغيّرَتْ معالمُ تاريخيّةٌ وجغرافيّةٌ وأُعيدَت التّوزيعاتُ السّكانيّةُ بطرائقَ جديدةٍ وبأساليبَ حديثةٍ.

هي عاشَت مع عائلتِها، وزوجِها وبناتِه وبقِيَت تعملُ طيلةَ عمرِها وهو بقيَ عازبًا يعملُ في الحقلِ العامِ ويقدّمُ خدماتٍ للنّاسِ.

عندما رأَتْه كانت تقصدُ مكانًا لمساعدةِ إحدى بناتِ زوجِها لتكملةِ دراستِها في الجامعةِ.

صُدِمَتْ وارتعدّت فرائصُها، حين رأتْه، فكيف لها أن تنحيَ لمن تَجّبَرَت وتكبّرَت عليه يوماً لطلبِ المساعدةِ.

وما إنْ تدارَكَتْ الموقفَ حتّى استدارَتْ راجعةً مغلقةً أذنيْها من استفهاماتِ ابنةِ زوجِها.

ومنذ تلك اللّيلةِ وهي تستعيدُ شريطَ الذّكرياتِ وكيف كانا عاشقيْن ولهانيْن.

ذاتَ مساءٍ، كانت تجلسُ مع البناتِ ويتحادَثْن ويتداوَلْن أموراً مختلفةً.

والوالدُ يجلسُ كأنّه طفلٌ لا يعلمُ شيئًا ولا يُدْرِكُ ما يحصَلُ.
طرقَ البابَ ففتحَتْ البنتُ الصّغرى فرأتْه هامةً أنيقةً تَلَعْثَمَتْ وهي تجيبُ خالتَها: "لدينا زائرٌ"

دَخَلَ، تَناوَلَ قهوتَه وبصمتِ العاتبينَ وغلاظةِ العانسينَ. قالَ: "لقد قُبِلَ طلبُ ابنتِكم وهذا شيكٌ بالمبلغِ، نريدُ إيصالَ التّسجيلِ فقط".
ووقَفَ مودّعًا.
هنا خَرَجَت عَبارَتان اثْنَتان: "حضرتُك أستاذ سامي... جارُنا في الحيّ القديمِ؟"

ابتسمّ وهزَّ رأسَه وانصرفَ تاركًا بطاقةً عليها رقمُ تلفونِه وعنوانُ منزلِه.

بَدَأَتْ البناتُ يتَغَزَلْن بالرّجلِ. واحدةٌ تتمنّى أن يكونَ والدَها وثانيةٌ تريدُه أخاً لها والصّغرى صرّحَت بالفمِ الملآنِ: "ليتَه يحبّني وأتزوجُه!"

هنا غَلَت الدّماءُ في عروقِها، صَرَخَتْ في وجوهِهن وأَنَبَتْهُن.
وبَقِيَ رقمُ موبايلِه أيامًا بين يديْها ووسطَ عينيْها، إلى أنْ تَجَرَّأَت واتّصَلَتْ وتَواعَدَا على اللّقاءِ.

وفعلاً حَصَلَ في مقهى على شاطىءِ الميناءِ، حيثُ رائحةُ السّمكِ والهواءُ العليلُ والقهوةُ البرازيليّةُ الطّيبةُ.

وخلال تناولِ القهوةِ، كانت العيونُ تتكلّمُ وكانت تُعاتِبُ وتَسْأَلُ:
-"أخبريني عن حياتِكِ؟"
-فقالَت: "ما زِلْتَ أنتَ حياتي!"

-"كيف؟ وتزوّجتِ وعندَك ثلاثُ بناتٍ!"
ضَحَكَتْ بهستيريا: "تَزَوّجْتُ كي أُرَبيَ البناتَ. هن يتامَى وهو قريبُ والدَتي؛ فتَصَوّرْتُ بهذه الفعْلةِ أستطيعُ الهروبَ من علاقةٍ فاشلةٍ، فأنا لا أحتملُ فشلاً ثانياً."

-"آخٍ! أنا لم يطِعْني ضميري كي أرتبِطَ بغيرِك. فَضّلْتُ العيشَ وفياً لآخرِ نظرةٍ من عينيْكِ، مردّداً آخرَ كلِماتِكِ وطابعاً في ذهنِي آخرَ صورةٍ لكِ! ما زلتُ أتناولُ القهوةَ معك؛ أطلبُ دومًا كوبيْن. أتناولُ الغذاءَ معك فأطلبُ وجبتَيْنِ، وأرتاحُ فوقَ صدرِك، أغفوعلى نبضاتِه. وما زلْتُ أُعانِقُ تلكَ الصّبيةَ الثّائرةَ غصبًا عنها وأَسْرِقُ منها قبلةً.أُكمِلُ فراغاتي بالعملِ وبمساعدةِ النّاسِ."

-"زوجي مريضٌ وبناتُه هُن بناتِي وأنا أُساعدُهم جميعاً. أَعملُ كي أغطيَ المصاريفَ؛ فمعاشُه التّقاعديُّ لا يكفي إيجارًا للمنزلِ"
-"ارجعي إليهم وأكملي مشوارَكِ وكلّما ضاقَت عليك الأيامُ تعالَيْ نتبادلُ أغلى المشاعرِ وأسماها ونرتشفُ من كؤوسِ الماضي أطيبَ الذّكرى"

"لن أدعوَكِ حبيبتي، فأنتِ حياتي ولن أطلبَ ما ليس من حقوقي ولكنّك ستبقين هنا في قلبِي تجاوِرين الرّوحَ وتُراقِصين الحنينَ. سلامُ الحبِّ إليك. سلامُ الشّوقِ لك وقبلةٌ فوقَ جبينِك العالي أرسلُها مع الرّيحِ. حافظِي على حبّنا كأنّه جرّةٌ تنضحُ بالجواهرِ والذّهبِ. إلى لقاءٍ يَجْمَعُنا في دنيًا ثانيةٍ حبيبتي"!

وهو مطأطأُ الرّأسِ أَمْسَكَ ورقةً صفراءَ وبدأَ يقرأُها مُتَمْتِماً كأنَّه يتلو دعاءَ ما قبل النّومِ.

الباب السّابع

التّواصلُ المباشرُ بين حكمةِ الجدّ وحماسةِ الشّبابِ وفوضى الأيامِ وما تعوّدَنا على الخصامِ ولكن كما يُقالُ هو من خصالِ إنسانِ هذا الزّمانِ، ما حَضَرَت في جمعٍ إلّا وتَعَالَتْ الأصواتُ وتَدَافَعَتْ الآراءُ وعَظُمَتْ الخلافاتُ.

لا يتنازلُ أحدٌ ولا يُحاولُ إظهارَ موقفِه بقرائنَ ولا إدحاضَ رأيّ غيرِه بالمنطقِ؛ التّشبّثُ بكبرياءٍ برأيه هو سيدُ المَوْقِفِ ولو كان على حسابِ كراماتٍ وفوقَ كلّ اعتبارٍ.

الاختلافُ سنةٌ ويردّدونها ولكن اكْتَشَفْتُ أنّ الكثيرين لا يَفْقَهون معناه وأبسطَ مبادئِه: تقبّل رأيّ الآخرِ ومحاولةَ تبيان حِجَجِهِ والتّعاملَ معه بإيجابيةٍ حيث تُبْنَى بالحواراتِ جسورٌ للتّقاربِ وطرقاتٌ للتّواصلِ. وإذا ما صَدّقْناه وَصَلْنا إلى غاياتِنا ومبتغانا وحقّقنا ذاتَنا وارْتَقَيْنا.

أبسطُ الأمورِ تقسّمُنا، أقلّه إلى فريقيْن: مع وضدٍ ولا مناقشةَ ومن المستحيلِ التّوحّدُ أو الإجتماعُ أو الخروجُ برأيٍّ واحدٍ وعلى قلبِ رجلٍ واحدٍ وإن حصلَ العكسُ واتفقْنا فنحن في مدينة أفلاطون أو حتّى في كوكبٍ لم يُكْتَشَفْ بعد.
ولو سلَّمْنا جدلًا ورُحْنا نُنْصِتْ ونستمعُ لبعضِنا، نرى في غالبيةِ الأحوالِ، كلٌّ يسمعُ لصوتِه ويَصُمُّ أُذنيْهِ عن كلامِ الغير.إذن فلِمَ التّعايشُ ولِمَ التّواصلُ ولِمَ التّفاعلُ فَلِيَعِشْ كلّ منا كما الانسانُ القديمُ في كوخٍ أو مغارةٍ أو ليقصدِ الصّحاري أو لِيَصْعَدِ الجبالَ ويبنِ له هناك مكاناً يُسْميه وطناً أو مملكةً أو غابةً،

لا فرقَ طالما الأنانيةُ سائدةٌ وحبُّ الذّاتِ غالبٌ والتّحجّرُ سلطانُ المواقفِ! بتْنا نُشْفِقُ على أنفسِنا بحقٍّ لصلابةِ فسادِنا وسوءِ تصرفاتِنا تجاهَ الإنسانِ عامّةً وتجاهَ العربِ خاصةً وحتى تجاهَ كلِّ الأديانِ. إنّ الدّينَ عندَ اللهِ الإسلام ولكنّ المسلمين ليسوا بالمَثَلِ الصّالحِ اليومَ. والله ربّ العالمين ومحمّدٌ أُرْسِلَ رحمةً للعالمين ويا خجلي من شفيعِنا كيف نبرّرُ تقاعسَنا وانحلالَنا وقلةَ دينِنا وأخلاقِنا يومَ الدّين؟ ماذا نحن بفاعلين لنصرتِه ولنصرةِ الدّين؟

نَتَرَحَمُ على جاهليّةٍ قديمةٍ كانت تُوقِدُ البناتِ والدّعارةُ في كلِّ اتجاهٍ والقمارُ والأزلامُ منتشران وأكلُ الرّبا وكلُّ شيءٍ حرامٍ. ما الفرقُ بيننا وبينهم؟! على العكسِ هم كانوا من الجاهليةِ، أمّا نحن فندّعي المعرفةَ والعِلْمَ والفِقْهَ والإسلامَ... نعم! ندّعي أنّا مسلمينَ ادّعاءً.

نتخاصَمُ، نتقاتَلُ، نشوّهُ أعظمَ لَبِنَةٍ في ديننا الحنيفِ: ﴿إنّما المؤمنون أخوة﴾، حتّى الأُخوّةُ طارَت في مهبِّ الانحطاطِ.

ليس صحيحٌ أنّ صلةَ الدّمِ هي صلةُ القرابةِ وليس صحيحٌ أنّ صلةَ الأرحامِ تبدّدُ الوُجومَ وتَكْسِرُالجليدَ وتَزيدُ من أواصرِ القربى بين النّاسِ.

وذلك لأنّ الله طَلَبَ منا ألّا نتَحاسَدَ ونَحْسِدَ بعضُنا البعضَ ولوعلى نقطةِ الماءِ وقليلٍ من الهواءِ. وطَلَبَ منا ألّا نَتَبَاغَضَ ونرى الكراهيةَ تَعُمُّ الأَجْواءَ وطَلَبَ منا أن نكونَ إخوانًا ففشلْنا ونسينا قول الرّسولِ الكريمِ: "لا يؤمنُ المسلمُ حتّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسِه."
مَنْ منا، اليومَ، يفضّل أخاه عن نفسِه؟ بالطّبعِ، لا أحدٌ، إلّا من رَحِمَ ربّي.

وطَلَبَ اللهُ منا أن نَتَعَاوَنَ، أيضاً، على البرِّ والتَّقْوَى، وها نحن نَتَعَاوَنُ على الإلحادِ والجُحودِ والتّقاطُعِ.

من هنا أقولُ لأبنائي وأحفادي أحيوا الإنسانيةَ فيكم وأقيموا الدّينَ كي تَصْطَلِحَ كافةُ الأمورِ.

لا يَخْفَى على مُفَكّرٍ ولا على أَبْلَهٍ ولا على مُقْتَصِدٍ أو سَفيهٍ أنّه (لا يُغيّرُ اللهُ ما بِقَوْمٍ حتّى يُغَيّروا ما بأَنْفُسِهِم)

وأَنْهَى الجدّ كلِمَتَه في اجتماعٍ في ساحةِ المدينةِ والكلُّ يَهُزّ رَأْسَه مُصدّقًا ويُصَفّقُ مُعْجَبًا ويُهَلِّلُ مُوَافِقًا وسرعانَ ما يعودوا إلى التّقاتُلِ والتّشَرْذُمِ والخِصامِ ولِأتفهِ الأمورِ والأسبابِ.

حتّى باتَ الجدُّ مصاباً باليأسِ بالحياةِ إصابةَ داءٍ عُضالٍ لا شِفاءَ منه ولا أملْ.
وكعادتِه هاربًا من واقعٍ أَحْمَقٍ أبْلَهٍ، انْفَرَدَ الجدُّ مع نفسِه. فضغوطاتُ الحياةِ في الوطنِ، تُلْزِمُه فتراتٍ يقضيها مُبْتَعِدًا عن ضجيجِ الأحداثِ وعن ازدحامِ النّاسِ.
يَنْزَوي في غرفتِه وبيْن يديْه أوراقٌ صفراءُ وهو يصرّ على أنّها بيضاءُ، يشبّهُها بأوراقِ الياسمينِ ويقرأُها غيرُ مبالٍ بقِدَمِها ولا مُعيراً اهتمامَه إلّا لمضمونِها ولكلماتِها؛ ففيها صدقُ المشاعرِ وقوةُ الإحساسِ...

تساقَطَتْ دموعُه وهو يقرأُ!
لقد كتبَت حبيبتُه تلك الكلماتِ تحتَ الحصارِ وفي أجواءِ الموتِ والدّمارِ ووسطِ العتمةِ وفي ليلةٍ حالكةٍ شديدةِ السّوادِ.

لا تصدّقوا أنّ القلمَ عَجِزَ عن متابعةِ الأحداثِ الحيّةِ ولكنْ صَدِّقوا أنّ الحزنَ على ما يجري هو ما جعلَه يَلْتَفِتُ إلى الذّكرى.فهنالك نورٌ بين عالمٍ مُظْلِمٍ مُتَسِمٍّ بالفوضى وبقلةِ الإنسانيةِ وبرَواجِ التّفاهةِ وسلطانِ المادةِ.

فمن رَحِمِ المعاناةِ تولَدُ الأفكارُ وتتالى القِصَصُ ولا شيءَ غيرُ الحبّ يستطيعُ إخراجَنا ممّا نَتَخَبّطُ فيه. فلا مغتربَ عائدٌ ولا حلولٌ ولا رزماتُ نقودٍ ولا أنصافُ بشرٍ.

علتُنا المستعصيّةُ ولسانُ حالِ مثقَّفينا ومَتْرَفينا هي التّشَبُّهُ بالغربِ. هم أفضلُ، نعم هذا صحيحٌ! فالغربُ أفضلُ طالما هناك أمثالُكم يتشدّقون بأخطائِنا ولا يملكون لنا إلّا الضّررَ يُلْحِقونَه بنا مع الأذى.

ماذا هم فاعلون؟ كُفّوا ألسنتَكُم واتْرُكونا! فعلى الرّغمِ ممّا نحن فيه إلّا أنّنا من الشّرقِ الذّي سَيَصحو قريباً، وينتفِضُ مع زوالِ الظّلمِ والاغتصابِ ومحاكمةِ السّارِقين ومعالجةِ الفاسِدين.

والجدُّ الرّزينُ الحكيمُ فَضَّلَ أن يَمْرِضَ بداءِ الخَرَفِ على أن يَعْتَرِفَ بضَعْفِ الحالِ وشدّةِ الأوجاعِ وانتشارِ الأوبئةِ.

ومالَ نَحْوَ استذكارَ حكايًا وقصصٍ وهكذا سيتلو عليكم قلمي ما مرَّ به جدُّنا الحزينُ في شَبابِه وما قد حَصَلَ مع حلمِه ووطنِه المُرْتَجَى.

الباب الثّامن

وكان المساءُ حزينًا والجدُّ أمامَ التّلفازِ يُشاهدُ المناظرَ الموجِعةُ في المسجدِ الأقصى وكيف يُعامِلُ الاحتلالَ المُصلّين. وليس في اليدّ حيلةٌ فالقضيةُ صارَت من أعماقِ التّاريخِ ولا نَسْتَذْكِرُها إلّا من حينٍ إلى حينٍ في قصفِ غَزّةَ وفي حصارِها وفي تفجيرٍ في القُدُسِ أو منعِ الصّلاةِ والآذانِ في المساجدِ.

وأمةٌ بكامِلِها، بملايينِها وبعديدِها وعِتادِها، بشيبِها وشبابِها غارقةٌ في تفاصيلَ لا تشبِهُنا ولا تمُّت إلى عروبتِنا ولا إلى أصالتِنا ولا إلى أديانِنا بصلةٍ.

لقد صادَرَ البعضُ مقاومةَ الشّعبِ الفلسطينيِّ ونسيَ الفلسطينيُّ حتّى معنى العودةِ. ورضيَ بأن يُكْمِلَ حياتَه بصفةِ لاجيءٍ بأرباعِ حقوقِه.

أساسياتُ الحياةِ هدفٌ وغايةٌ والفقرُ والجهلُ عنوانُ وطنِنا على امتدادِه.
لا ينبري أحدٌ ويقولُ غيرَ ذلك، سيروا في دروبِنا تَرَوْن العجبَ: انتشارَ ثقافةِ الفَقرِ والجهلِ. لقد أصبحنا شعباً متلقٍّ وفارغاً، يملأون جوفَه وبطنَه وعقلَه بما يشاءون باستثناءِ القلوبِ فإنّهم لّما يقدروا عليها. ومن هنا كان واجبٌ علينا الانطلاقَ في مهمةِ إعادة إنسانِنا العربيّ إلى قائمةِ الإنسانِ الفاعلِ والرّائدِ والمؤثّرِ. والّا فعليْنا الرّحمةُ والسّلامُ وسيبقى الوطنُ العربيُّ مقبرةً بشاهدٍ رخاميّ وكومةِ ترابٍ. لا حياةَ لمن لا يغيّرُ ما فيه من شوائِ وفسادٍ وضلالٍ وانحلالٍ.

وعِشْتُ ليومٍ يُمْنَعُ فيه المسلمون من الصّلاةِ ومن ارتفاعِ صوتِ الآذانِ ومن اعتبارِ يومِ الجمعةِ يوماً للدّماءِ.

لقد جفَّ مدمَعي يا أبنائِي ولكن حتّى شراييني ودمائِي تصرُخان: أين النّخوةُ يا عربيّ؟!

ارمِ نبريشَ نارجيلتِك وارمِ علبةَ سجايرِك واكسِرْ كأسَ خمرِك ومزّقْ علبةَ مخدّرِك! انْهَضْ وتَوَضّأْ وصَلِ وارفَعْ صوتَك وليجتمعِ الملايينُ في السّاحاتِ يؤذنون يصلّون ويسجّلون اعتراضًا. في العالمِ أناسٌ يَرَوْن جيدًا ويميّزون وليس صحيحًا أنّ الغربَ هواهُ صهيونيٌّ، والدّليلُ، في زمنِ الدّاعشيّةِ و إلصاقِ الإرهابِ بالمسلمين، نرى المتعلّمين المثقّفين والخِيَرَةَ منهم يُشْهِرون إسلامَهم ومنهم من يبقى على حالِه ويدافعُ عن الإسلامِ أكثر منا نحن المسلمون.

اصحوا يا عربُ فأجيالُكم تستحقُّ وطنًا مزدهرًا خاليًا من الشّوائبِ وغيرِ محتلٍّ ولا مُسْتَعْمَرٍ لا عسكريًّا ولا ثقافيًا ولا اجتماعيًّا ولا تربويًّا...

بالقلبِ بأضعفِ الإيمانِ ابدَأوا! فرحلةُ الألفِ ميلٍ تبدأُ بخطوةٍ واحدةٍ.

ومن أوراقِه البيضاءِ:

لا تغضبْ
يا ولدي
لا تغضبْ
إن مُنِعَ عنك الكلأُ والماءُ والهواءُ

لا تغضبْ
إنْ قتلوا وشرّدوا وعاثَوْا في البلادِ فساداً

ودمَّروا ونَشَروا ثقافةَ القوّةِ العسكريّةِ
ورفعوا رايةَ الحذاءِ
لا تَغْضَبْ
إنْ هانوكَ وأذلّوكَ ومسحوا بكرامتِك الأرضَ
لا تغضبْ
إن أزالوا خارطةَ وطنِك وأحرقوا المكاتبَ والكتبَ

لا تَغْضَبْ
إن رقصُوا فوقَ جُثَثِ أطفالِك واعتَقَروا الخمرَ وعاقروا الرّذائلَ

لا تَغْضَبْ
إنْ هَتَكوا عَرْضَك واعْتَدَوْا على أمِّك وأختِك
وابنتِك

لا تَغْضَبْ
إن أَطْفَأوا شُعْلةَ الرّبيعِ العربيّ بأفواهِهم القَذِرةِ

لا تَغْضَبْ
إن وَضَعوا يدَّهم على مالِك وحلالِك

لا تَغْضَبْ
إن داسوا على رقبتِك ووضعوا الحذاءَ في فمِك

لا تَغْضَبْ
اغْضَبْ فقط اذا ما قالَ أخوكَ عنك متخاذِلاً وفَجّرْ كلَّ ارهابِك ونَقْمَتِك
أَوَ لَسْتَ من أبناءِ آدمَ، آدمَ الذّي تَقاتلَ أبناؤُه فقتلَ الأخُ أخاه ونَدِمَ.

اغْضَبْ من نَفْسِك
اغْضَبْ من ضَعفِك

اغْضَبْ من حيرتِك
ولا تنسَ فالعمرُ واحدٌ
الرّبُّ واحدٌ
والموتُ لمرةٍ واحدةٍ
فلا تكن جبانًا
ودافعْ عن مقدّساتِك
مالِك، كنوزِك
وأرضِك وعَرْضِك.

لا تَغْضَبْ يا ولدي
وكن من الكاظِمينَ الغيظَ
ولكن لا تنحَنِ ولا تُطَأطأْ
لا رأسَك ولا ظهرَك
ربُّك خَلَقَك قامةً وهامةً
وخَلَقَ الحيوانَ
على أربعٍ
فلا تكن حمارًا
ولا غَنْمَةً
ولا حتّى أسدًا
كن فقط إنسانًا.

الباب التّاسع

وتتساقطُ أوراقُه الياسْمينيّةُ تريحُه وتَجْعَلُه قويًا.
في داخِلِي طفلةٌ تبكي لُعبتَها
وتضحكُ للأفلامِ الكرتونيّةِ
وتَقِفُ أمامَ مرآتِها تنتظرُ العمرَ القادمَ
وتَلْعَبُ مع جيرانِها
وتَتَأَرْجَحُ في حديقةِ مَنْزِلِها
وتصرخُ من شرفتِها على أترابِها
وتحاورُ العصافيرَ من نافذَتِها
لا يُقْلِقُها أمرٌ ولا يُحْزِنُها شيءٌ
تحلمُ فَقَطْ بحذاءِ سِنْدِريلّلا
وبِعَرَبةِ السّاحرةِ
وبمنتصفِ اللّيلِ
وفجرِ اليومِ الجديدِ
عالمُها لعبةٌ وشجرةٌ
حياتُها دمعةٌ وابتسامةٌ
نطُّ الحبلِ أسلوبُها
ورميُّ الطّابةِ طريقتُها
والتّرابُ أجملُ مادةٍ لبناءِ شخصيتِها
عليه تُقيمُ قصرًا وكوخًا
حدائقَ وبساتيناً ملاعبَ ومنازلَ

تلك الطفلةُ صارَت عجوزًا
ابيضّت نواصيها، أُثْقِلَتْ أكتافُها
وسرَقَت منها السّنون مواقيتِها
ليلَها ونهارَها، غروبَها وشروقَها
ولا زالت طفلةً
ولا يزالُ حلمُها فتِياً
اللّعبةُ انكسرَت فقط
والسّاعة الثّانية عشْرَة انمحَت
والفجرُ الجديدُ صار قديمًا
وأمّا شرفتُها منبرَ ذكرياتٍ
والنّافذةُ محطةَ عتابٍ
والأرجوحةُ وحدَها شاهدَ عيانٍ
على غدرِ الزّمانِ
وعلى بشاعةِ ظنونِ البشرِ
وفظاعةِ بدعِ النّاسِ
وضلالةِ كلّ ذي قلبٍ
وعقلٍ ونفسٍ لوّامةٍ
نوّامةٍ وأمّارةٍ بالسّوءِ.
براءةٌ دُفِنَتْ ونبتةٌ عَطَشَتْ
وطفلةٌ تركضُ وراءَ حلمٍ
أَصْبَحَ ظلاً في يومٍ من الأيامِ
واليومَ بات سرابًا!

تلك الكلماتُ مهداةٌ لنفسٍ غاليةٍ ولإنسانةٍ عاليةِ المقامِ ولوقتٍ كان النّاس فيه بشراً.

الباب العاشر

بيانٌ غيرُ هامٍ...إنّ الأحداثَ والشّخصياتِ في أوراقِ الياسمينِ هي محضّ خيالٍ ومستمدّةٌ من بناتِ الأفكارِ وما تقاربُ الصّورِ إلّا من الصّدفِ؛ فلا تصدّقوا قلمًا يخطُّ واقعًا!

كنتُ ولم أزلْ خياليةَ الهُويةِ، خياليةَ الهوى، خياليةَ الحروفِ وخياليةَ الكلماتِ.

تعبُرُ الكلماتُ من قلبِي وضميرِي الى قَلَمِي وسُطورِي...
بصراحتي وبقلمي سأكتبُ عن فتراتٍ كان النّصرُ خطابًا والمعاركُ شبهَ وهميّةٍ والشّعوبُ أمةً على قلبِ رجلٍ واحدٍ. وبعدَهم جئنا نحن المتعلمونَ المثقّفون ندّعي أنّهم جيل الإحباطِ والمُحْبَطينِ وأنّهم أورَثونا أوطانًا لا تُشْبِهُ أيّ وطنٍ: معالمُها واضحةٌ، حكامُها من الكواكبِ الأخرى وشعوبُها مكافحةٌ جُبِلَتْ من ترابِ الأرضِ.

ركّزْنا على نيلِ الشّهاداتِ وتركْنا العملَ بالعِلْمِ، وراحَت طاقاتُنا على تقليدِ الغيرِ دون التّمييزِ بين الضّلالةِ والهدى، الصّواب والخطأ، الحقِّ والباطلِ، وأسرَفْنا في الغوايةِ وتراخيْنا في الكثيرِ من التّفكيرِ والإنسانيّةِ والأخلاقِ النّبيلةِ والأفعالِ السّاميةِ.

حتّى بتنا طائراً مكسورَ الجناحيْنِ يتلوّى فوقَ الغصنِ لا يطيرُ ولا يسيرُ.

أمّةٌ نالَت استقلالاتِها وحازَت على الاستعبادِ للحكّامِ وللمالِ؛ دينُها دينارُها.

واعتقدوا أنّ المالَ هو المعيارُوسقَطَت منهم على حينِ غَفَلاتٍ ثقافاتُ العيشِ والهناءِ.
تراهم صرعًى وما هم
تَسْمَعُهم موتًى وليسوا
تَكُنْ معهم ولَيْتَك ما كُنْت.
نكسةٌ وراءَ نكسةٍ
تَخاذُلٌ يليه تخاذلٌ

وشعوبٌ ما وَراء العالمِ وليس ثالثًا ولا حتّى عاشرًا.ليس لأنّهم لا يَتَعَرّوْنَ لغايةٍ في البِلاطاتِ ولكنّهم عَرّوْا كلّ أفعالِهم وهَتَكوا ستراتِ معايشِهم واعتمَدوا الخِداعَ سبيلَهم والكَذِبَ لسانَ حالِهم.

انتظروا وسأشرحُ لِمَ كلّ هذا؟

انْظُروا مِن حولِكم سوف تَجِدون مجتمعاتِنا فيها الأكثرُ فقرًا والأكثرُ جهلاً على السّواء. نعم، وسوف نجِدُ مَنْ ينْبَري ويقولُ أنا متعلمٌ وهناك متعلمون وأنا ثريٌّ وهناك أثرياء، ولكن للأسفِ نحن قليلو العلمِ والعملِ والمالِ وبكلّ ذلٍ واستياءٍ.

لا تتباهوا بعديدِ حملةِ الشّهاداتِ، مع الأسفِ، حُوّلوا إلى حميرٍ محنيةِ الظّهورِ محبوسةِ العقلِ، معدومةِ الإحساسِ.
وأمّا الأغنياءُ والأثرياءُ فقد مالوا صوبَ الفشلِ حتّى في تنميةِ مالِهم وحَوّلوه إلى حرامٍ وإلى كَوْماتٍ يعتقدون أنّها لهم وهي متراكمةٌ في البنوكِ لا مشاريعَ فعّالةً ومُنْتِجةً ولا من يحزنُ، وإن استُثْمِرَتْ الأموالُ ففي مشاريعَ هدّامةٍ مُخَرّبةٍ تشويهيّةٍ لمعتقداتِنا، بيئتِنا وعروبتِنا وأصالتِنا وإلّا فلا.

وَصَلْنا إلى الدّركِ الأسفلِ ولن نورثَ أبناءَنا إلّا حِفنةَ ترابٍ يُسمّونها وطناً.

ثلثٌ مغتربٌ وثلثٌ واعٍ وثلثٌ أبلهٌ.

والحكمُ للميزانِ: كلّ يومٍ نتعلقُ بحبالِ الأملِ، نُلْصِقُ التّهمَ على القوى العالميّةِ والتّياريْن الرّأسماليّ والشّيوعيّ ونبتدعُ المبرّراتِ ونقولُ فعلوا ويفعلون واللهِ لن يَدْخُلَ وطنَنا مَنْ لم نشرّعْ له الأنفسَ قبلَ الأبوابِ والنّوافذِ. وها نحنُ اليومَ محتلّون من جميعِ القوى، مُفَتَتونَ. الأعداءُ كثرٌ ومنهم تراجعُنا وتهاونُنا.

وقالوا عن الرّبيعِ العربيّ أنّه حركاتٌ مُصَدّرةٌ وقالوا نتاجَ الإنترْنيتِ.

وقالوا عنه اسرائيليّ.

فهو المشكلةُ بين الشّعوبِ وبين الأنظمةِ؛ والكلامُ هنا يُشْبِهُ الصّمتَ فشرحُ المُسْهِبِ المُفَصَّلِ عواءٌ ونباحٌ ونهيقٌ.
المشكلةُ هي أنّهم تركوا لنا فيه مدارسَ ويا ليتنا بقينا على الكتّابِ والمشايخِ.
وتركوا المشافي وما أفضلُها ضماداتُ الجدّةِ ولمسةُ حنانِ الأمِّ عمّا يحصلُ اليومَ من تِجاراتٍ للأجسادِ وللدّمِ وللّحمِ البشريّ.

وها نحن نكادُ نغرقُ بالآلياتِ وبلا مبالغةٍ لسنا سعداءَ ولا نحن مرتاحون.

العولمةُ حلّت رحالَها فوق أوطانِنا المُنْهَكَةِ وشعوبِنا المُبَعْثَرةِ.
إنسانُنا يتلقّى، يُلَقّنُ، يُعيدو يُقَلّدُ ويزيدُ في ذلك ولا يتعبُ لا عقلُه ولا فكرُه.
يعيشُ على التّفاهةِ وبالرّفاهيةِ الخدّاعةِ وبطريقةٍ حيوانيّةٍ.أكلٌ ونومٌ وضحكٌ وتسالٍ وعملٌ لذلك فقط.

جبرانُ قالُ: "الويلُ لأمّةٍ" وأقولُ له: ليتَكَ قُلْتَ الويلُ لأمّةٍ صارَت شعوبًا وقبائلَ للتّناحرِ وللتّقاتلِ واليدُ اليمنى عدوٌّ لليسرى وحواسُنا وحاستُنا أعداءٌ لقِيَمِنا ولأسلوبِ حياةٍ يجبُ أن نتفرّدَ فيه لو كنا خيرَ أمّةٍ.

وقال أُدَباؤنا أشياءَ منها ما رَفَعَ معنوياتِنا وجعلَنا نعيشُ أحلامَنا. ومنها ما أنزلَنا الى جوفِ الأرضِ.

وندّعي أنّنا أجيالٌ متعلّمةٌ مثقّفةٌ واعيةٌ وقادرةٌ على تغييرِ أحوالِنا إلى حالٍ أحسن .

اليومُ أُعْلِنُها أنّنا سلّمناكُم أوطانًا مُهْتَرِئةً، خارطتُها تُرْسَمُ لنا وما يزالُ مصيرُنا يُحَدّدُ من غريبٍ وليس باليدِّ حيلةٌ. حروبٌ مفروضةٌ علينا، سياساتٌ يلصقونها بنا وبدعةُ آخرِ زمانٍ: عروبةٌ صارَت غروباً وغَرْباً وغاباً ...

ولا نشبهُ إلّا الأدغالَ. يبقى هذا الجيلُ الرّائعُ المتفّهمُ والسّاعي إلى وطنِ الإقامةِ بهُويةٍ عربيّةٍ تخلو من شوائبَ أجنبيّةٍ وغربيّةٍ وصرفٍ للعروبةِ وللأديانِ وللإنسانِ العربيّ.
وللمواطنِ الفاعلِ المُنْتِجِ المؤثّرِ اجتماعيًا، سياسيًّا، اقتصاديًّا، علميًّا، أدبيًّا وعلى كلّ الأصعدةِ.

إرثٌ ثقيلٌ نتركُه لكم على أملِ أن تورِثوا أحفادَنا وطنًا نرجوه ويستحقونه.
الدّنيا تُبكينا وتُضْحِكُنا والأيامُ مُتَدَاوَلةٌ فيما بين جميعِ أحوالِنا، وبالطّبعِ لا أحبُّ أن أكونَ سلبيًّا وأكتبَ الأحزانَ بل سألوّنُ كلماتي بكلّ الألوانِ، وأركّزُ وأَكبرُ وأُظهرُ الأفراحَ أيضًا، وليس على طريقةِ كان يا ما كان، بل الحاضرُ والآن .

يا سادة ويا أحباب في حياتِنا مساحاتٌ للرّاحةِ وللاستجمامِ، وأبسطُ الأشياءِ توصلُ قهقهاتِنا الى أقصى مكانٍ، سهراتُنا زياراتُنا رحلاتُنا ومباراتُنا كلّها مواضيعُ لتبادلِ الفوزِ والنّجاحِ ويترتّبُ على ذلك تنفيذُ أمرٍ أو القيامُ بعملٍ ما.

في حارتِنا ساحةٌ عبّدَها شبابُنا وزرعُوا فيها سلتيْن فوق عموديْن ويوميًا نُجْري مباراةً بين فريقِ الحارةِ وفريقِ الحارةِ المجاورةِ. ولا أُخْفيكُم من تصفيقٍ وحماسةٍ وتحفيزٍ بين الجمهوريْن والنّهايةُ توزيعُ زجاجاتِ العصيرِ على الجميعِ ومن قِبَلِ الفريقِ الفائزِ.

والبرجيزُ رفيقُ الجدّاتِ والنّساءِ اللّواتي يَقضينَ سهراتِهن بلا أزواجٍ أو أبناءٍ. يُقِمْن جلساتٍ ويَلْعَبْن وبين الدّستِ والبنجِ والدّويك خسارةٌ أو ربحٌ، سبعةٌ ونصفُ عندما لا تدخُلُ الخصمُ ولا الحَجَرُ، والنّهايةُ أيضًا حلوًى وعصيرٌ وقهوةٌ وكلماتٌ وحواراتٌ.

وأكثرُ الأشياءِ التّي أسعدَتْنا هي عربةٌ بالدّواليبِ الصّغيرةِ، كنا نصنَعُها ونضعُ فيها مكابحَ ومِقْوَدٍ ونسيّرُها على الرّصيفِ ووراءُنا صديقٌ أو رفيقٌ أو حتّى أغراضٌ.

و المعلاقُ أيضًا سلاحٌ نصطادُ فيه ونُصَوّبُه نحو صِبْيةٍ يتعدّونَ على حارتِنا ويُلطّشون على بناتِ حييّنا. والتّلفونُ المعدنيُّ خيطٌ طويلٌ وعلبتان، نتكلّم مع بعضِنا ويَصِلُ إلَيْنا الصّوتُ واضحًا ولو ابتعدْنا عن بعضِنا.

تلكَ الأشياءُ البسيطةُ كانت من إنتاجِ براءتِنا وسذاجتِنا وكانت لا تُرضينا فحسب بل تجعلُنا نطيرُ سعادةً ونرقصُ فرحاً اذا ما اجتمعْنا ولَعِبْنا وقَضَيْنا أوقاتًا رائعةً .

والأكثرُ رفاهيةً صبيٌّ يملكُ دراجةً فنستعيرُها ونَرْكَبُها مُطْلِقينَ لِأرجُلِنا العَنانَ.

ولا عجبٌ إذ ما كنا نحتفظُ بمساحاتٍ هادئةٍ وأمكنةٍ ساكنةٍ في أنفسِنا لأنّنا عِشْنا طفولتَنا بكليتِها وأعمارَنا بما قُسِّمَ لنا.
باختصارٍ رضينا باللهِ ربًّا وبأقدارِنا نصيبًا في الحياةِ.

ليتَكم يا أطفالَنا تعودون إلى طفولتِنا، طفولةٍ فيها السّلامُ والاطمئنانُ والفرحُ. بناتٌ وصِبْيَةٌ كنا نستعملُ علبةَ الكبريتِ لِنَضَعَ الزّيزَ الأخضرَ، نربطُه بالخيطِ ونَلْعَبُ به في الغرفةِ وفي الشّرفةِ وفي البستانِ. وغطاءُ القلمِ نضعُ فيه صِمْغَ الشّجرِ نحرّكُه بعودٍ فيصبحُ مادةً لاصقةً وألعابٌ تسلّينا، تحرّكُ مشاعرَنا وتلامسُ قلوبَنا وترْسمُ الابتسامةَ فوقَ وجوهِنا.

والعصافيرُ المحبوسةُ في الأزهارِ نَنْفُخُها وتطيرُ بعشراتٍ، هي عبارةٌ عن كُتَلٍ لها ريشاتٌ بيضاءُ خفيفةٌ تتطايرُ حولَنا نلاحِقُها ونُمْسِكُها بأيدينا ونضحكُ.
ولكلّ طفلٍ، في جوفِه شابٌ أو رجلٌ، أُشْفِقُ عليك! لقد ضاعَت أجملُ لحظاتِ حياتِك. ولستَ أنتَ السّبب، إنّما الجميعُ الذّين زادوا من مسبّباتِ اختفاءِ طفولتِك وسرَقوا لكَ براءَتَك وحقَّكَ في اللّعبِ وفي الفرحِ.

الباب الحادي عشر

حوارٌ بين الجدِّ والحفيدِ حولَ ما يجري في القُدْسِ.

-"أَوَ تَعْلَمُ يا عمرَ ما أصابَني من حماسةٍ تجعلُني أَقِفُ مع هؤلاءِ النّاسِ أهتفُ وأصرخَ وأصمّمُ على دخولِ المسجدِ الأقصى. لن أتهمَكَ بالضّعفِ فلستَ وحدُك المسؤولَ، سياساتٌ جديدةٌ وخارطةُ شرقٍ جديدٍ وحروبٌ أنْهَكَتْنا جميعًا"

-"جدّي الوقورُ أنا معك شعرْتُ بذلك وها هم شبابُ القُدْسِ وبدونِ إراقةِ دماءٍ اجتمعوا على البرِّ والتّقْوَى ونَصَروا اللهَ فَنَصَرَهم"

-"حقًا يا عمرَ وحتّى الاحتلالُ الإسرائيليُّ يُجْبَرُ على إزالةِ البوّاباتِ الالكترونيّةِ والسّككِ الحديديّةِ ويَفْتَحُ لهم أبوابَ المسجدِ كي يصلّوا. هذا ما لم يَسْتَوعبْه عقلي القوميُّ"

-"جدّي لو كانت تلك المظاهرةُ في أيّةِ دولةٍ عربيّةٍ أخرى لَحَصَلَتْ مجازرُ بالتّأكيدِ. والقصةُ ليست دفاعًا عن الجنودِ الإسرائيليين ولكن للأسفِ جنودُنا يفعلون يسيؤون للمواطنينَ وينفذّون أوامرَ حاكمٍ مجنونٍ".

-" لا يا عمرَ ما تقولُه خطيرٌ فليبقَ الإسرائيليَّ عدوَّنا التّاريخيّ والمستقبليَّ حتّى تحريرُ فلسطينَ"

-"أعلمُ يا جدّي ولكن مجردُ ملاحظةٍ ومقارنةٍ ولم أسْتَطِعْ إخفاءَها"

-"انظر الى مصالحِ الصّهاينةِ حيثما وُجِدَتْ لامجالَ للإنسانيّةِ وما فعلوه كان وسيلةً قذِرةً ليُقْنِعوا العالمَ أنّهم مسالمونَ."

"-ربما ضَغَطَتْ عليهم الإدارةُ الأميركيّةُ؛ أَوَ ليْسَت إسرائيلُ ابنتَها المدلّلةَ؟"

-"هي السّرطانُ والوَرَمُ الخبيثُ في خاصرةِ الوُطَنِ العربيّ"!

-"أيَّ وطنٍ يا جدّي تَقصُدُ؟ قُل قبائلَ! قُلْ ضِيَعاً! قُلْ ما شئتَ إلّا وطناً! فوطنُنا، يا جدّي، قد ضاعَ في غياهبِ السّياساتِ الكاذبةِ"
-" الوطنُ ليس امتداداً ولا مساحاتٍ ولا بقعةً ولا خريطةً! الوطنُ، يا ولدي، قلبُك المتعلّقُ بأجدادِكَ، بأصالتِكَ، بدينِكَ، بِعَرْضِكَ وبأرضِكَ وكرامتِكَ وشرَفِكَ"

-" لماذا مصيرُنا معلّقٌ بأهوائِهم؟ ولماذا نتنازلُ عن حقوقِنا في ولايةِ أوطانِنا؟"

-"أنظُرْ الى العالمِ الذّي رجعْتُ أنا منه، كلُّه سلامٌ ما عدا وطننَا. وشعوبُ العالمِ وجدَتْ دروبَها وامتلكَتْ ثقافاتِ عيشِها"

-"أمّا نحن ما زلنا نَلْهَثُ وراءَ الماءِ والكهرباءِ ورغيفِ الخبزِ"

-"ساعدْناهم وشرّعْنا لهم النّوافذَ والأبوابَ وأكثرُ من ذلك قدّسْنا الزّعيمَ وركعْنا للمالِ وللوظيفةِ وللمركزِ ونافسْنا بعضُنا بعضًا لا في الوطنيةِ فحسب بل في حبّ الذّاتِ والتّفاضلِ وتقبيلِ الأيادي والذّلِ للعبدِ المخلوقِ"

-"أَرَأَيْتَ يا جدّي حتّى أنتَ تُحَمّلُنا المسؤوليةَ، ولكن الحقّ معك لقد اعتبرْنا حبَّ الحاكمِ عبادةً ونسينا كيف يجب أن يكونَ خادمًا لا مخدومًا!"

-"أنظر يا عمرَ فرحةَ المقدسيينَ العُزّلِ بكلّ أطيافِهم بانتصارِهم على العسكرِ الصّهيونيّ"!

-"أورثْتمونا حبَّ فِلسطينَ وحبَّ الموتِ في سبيلِ اللهِ دفاعًا عن أرضِنا المسلوبةِ حتّى استفقْنا ووجدْنا كلّ الوطنِ العربيِّ مسلوباً أو بالأحرى وضعُه أخطرُ من فلسطينَ المحتلّةِ "

-إلّا اليأسَ يا عمرَ؛ فهو يحرُقُ اليباسَ، يطفىء الأملَ بالنّصرِ وبوطنٍ عربيٍّ يجمعُنا، وطنٍ يقودُ ولا يُقادُ، يصنعُ قراراتِه وقراراتِ العالمِ، يكون قدوةً لكلّ العالمِ"
-"حلمُك مازال شابًا، يا جدّي، أمّا حلمي فشاخَ وأُصيبَ بالألزهايمر"

-"الحلمُ يا ولدي، وليدُ الأملِ ولا يشيخُ ولوتقدّمَتْ بنا الأعمارُ وعاثَ الزّمانُ بوجوهِنا الخرابَ"

-"صدقاً يا جدّي اليومَ أقولُها بالفمّ الملآنِ، أغارُ من الفِلسطينيينَ و ليتني كنتُ مكانَهم"

-"سنعودُ جميعُنا يوماً، نصلّي في الأقصى ويتحققُ الحلمُ في تحريرِ فِلسطينَ وفي توحيدِ الوطنِ العربيّ"

-عمر(ضاحكاً): "طبعًا وبكلّ غرور عندما أَصبحُ قائدًا وزعيمًا"

-لِمَ لا؟! لا يضيعَ أملٌ وخاصةً ذاك المقرونُ بالتّوكّلِ على اللهِ"

-"وإلى أن يأتيَ حاكمٌ يرجو مصالحَ الأمّةِ قبلَ مصلحتِهِ سنبقى نناصرُ القضيةَ الفلسطينيّةَ إعلاميًّا ونبكي ثوراتٍ أُجْهِضَتْ على وسائل التّواصل الاجتماعيّ". ونكتبُ أحلامَنا وطموحاتِنا في الهواء ِأو على ورقةٍ نضعُها في زجاجةٍ ونرميها في الأبيضِ المتوسّطِ أو فوقَ الجدرانِ بدماءِ الشّهداءِ الأبرارِ"

-"دعني أعيشُ القليلَ من الفرحِ مع المَقْدسيينَ فهُم واللهِ أعادوني إلى أيّامِ عبدِ النّاصرِ وتأميمَ القناةِ واسترجاعَ سَيْناء"

-" أَرَأَيْتَ حتّى أنتم قَدَّسْتُم الزّعيمَ"

-"لا يا عمرَ، عبدُ النّاصرِ كان ظاهرةً جمعَ حولَه الشّعوبَ العربيّةَ كلَّها. وكلّما شعرْتُ بنشوةِ العروبةِ وحبِّ الانتصارِ أَسْتَمِعُ إلى الأغاني القديمةِ التّي كانت لنا أناشيدَ وطنيّةً نردّدُها بأفواهٍ مُغْلَقَةٍ وقلوبٍ مشرَّعَةٍ وكأنّنا نغيظُ كلّ عدوٍّ ونُسْمِعُ كلَّ جائرٍ ومُغْتَصِبٍ"

-"آه يا جدّي! التّاريخُ كَرِهْناه والحاضرُ بَكَيْناه والمستقبلُ خِفْناه. فماذا نحنُ فاعلون؟"

-" أنتم الرّكيزةُ وأنتم الشّعلةُ التّي لم ولن تنطفىء، سوف تمضون بالوطنِ نحو الازدهارِ وهذا ليس توقعًا و إنّما إيمانٌ حقيقيٌّ!"

-"أُحِبُكَ وأُحِبُّ روحَكَ تلك وستبقى لنا أروعَ إنسانٍ وُجِدَ وأباً نَنْهَلُ من حناياه ما لم نرَه ونسمعْه وتُخبرْنا به الأيّامُ"

وجاءَ صوتُ الحنونةِ يَصْدَحُ: "لقدْ أَطَلْتُم الجلساتِ اليومَ، كفاكُم حواراتٍ ومناقشاتٍ وتعالَوْا وانضمّوا إلى الجَمْعِ وفُضّوا معي الإشكالَ! لَقَدْ وَقَعَ صدامٌ بين العائلةِ، أناسٌ مع وأناسٌ ضِدْ وهكذا"

وهَدَأَ الجَمْعُ مع أصواتِ فناجينِ الشّاي وخربشاتِ صواني الكعكِ الذّي صَنَعَتْهُ الوالدةُ بكلّ حبٍّ وامتنانٍ، ومع صوتِ المذيعةِ تُخْبِرُ عن بطولاتِ الشّبابِ وقُدْرَتِهم على الصّمودِ في وجهِ عدوٍّ لا يرحمُ.

وعندما تسلّلَ اللّيلُ واندسَّ الجميعُ في سرائرِهم ومع سريرتِهم، هَرَبَ عمرُ إلى الشّرفةِ يُريحُ فكرَه من ضجيجِ الأحداثِ ويَجْمَعُ شتاتِ آراءٍ ويُصّوّبُ الكلماتِ

وراءَ اللّابتوبِ على صفحتِه؛ يُجيبُ فلانًا ويردُّ على فلانٍ ولا عَجَبَ ولا غرابةَ إذ إنّه ناشطٌ يسعَى لتغييرِ الأحوالِ في وطنِه. وليس كما يُتَهَمُ بأنّه يُضيعُ أوقاتِه على الإنترنيت.
ويستطردُ كاتباً:

"في وقتٍ، طائراتُ بعضِ الحكّامِ العَرَبِ تقصفُ شعوبَها، رأيْنا الصّهاينةَ يتراجعون عن قراراتِهم ويمتثِلون لرأي أُناسٍ نزلوا على قلبِ رجلٍ واحدٍ يَصْرَخون نريدُ الأقصى!! وفي زمانٍ، يدّعي المُدّعي المقاومةَ للاحتلالِ، نراه يَرْكُضُ وراءَ بِدعةِ التّكفيريين ويَلْحَقُها تمامًا على نمطِ الهرّ والفأرِ حيثُ يتبادلان النّصرَ والهزيمةَ على السّواءِ. أين نَقِفُ نحن الشّبابُ العربيُّ، اليومَ، هل نبكي على الأطلالِ أم نعيدُ ثورتَنا أم نشاهدُ حتّى يقضيَ اللهُ أمرًا كان مفعولًا؟
ولا تفسّروا كلامي كغَزَلٍ للإسرائيليين، هي فقط ملاحظةٌ أوْجَعَتْني فأردتُ مشاركتَها معكم أصدقائي.

انفضوا أيدي الحكّامِ عنا وأبْعِدوهم واترُكوا لنا المجالُ لصُنْعِ الأوطانِ. كفاكُم تخاذلًا وتجارةً في أوطانِنا وكفاكُم امتصاصاً لدمائِنا!

نريدُ أن نعيشَ في وطنِنا براحةٍ وسلامٍ واطمئنانٍ وبلا منيةٍ من فخاماتِكم! فينا رجالٌ تملِكُ القدراتِ وتستطيعُ أن تُحْكُمَ بما أنزلَ اللهُ بلا بدعةِ داعشٍ ولا الأصوليةُ ولا نعلمُ ماذا سيسمّونها لاحقًا.

تَعِبْنا منكم ومن كَذِبِكم ونِفاقِكم ونُريدُ العيشَ بدونِكم! ارحَلُوا مع غبائِكُم وجيوبِكم قبلَ أن تَحْتَرِقوا وتُحْرِقوا معكم كلَّ شيءٍ.

أولُ مرّةٍ أشعرُ بالبعدِ عنكم. لا تَنْتَقِصوا من قوتِنا القادمةِ وخذوا حِذْرَكم! لَقَدْ باتَ الوطنَ المرجُوَّ قابُ قوسيْن أو أدنى، فإرادةُ الشّعوبِ لا تَمُتْ والحكامُ دومًا إلى زوالٍ. طبعًا أمثالُكم ممن لا يُراعون حُرُماتٍ ولا يَبْنون بل يَهْدُمون كلّ بنيانٍ.

سوادُ الأيّامِ الحالكُ، رغمَ إشراقةِ الشّمسِ الحارقةِ، يُنَبِىء برياحٍ صَرْصَرٍ عاتيةٍ تَقْتَلِعُ كلَّ يابِسٍ وشاذٍّ ومكسورٍ وحانيةٍ، حتّى التّفاهمُ بينَ النّاسِ باتَ ذكرَى أو في المستقبلِ أو نبوءة ً في فنجانِ بدويّةٍ أو قارئةِ كفٍّ غبيّةٍ"

الجدّ يستصرخُ آهةً في النّفس: "غَضَبٌ وحِقْدٌ وانفعالٌ أَهْوَجٌ وأبلهٌ وارتكابُ حماقاتٍ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى.

ومتى ستَتَوَقّفُ لعبةُ اللّيلِ السّاديّةِ بينَ البشرِ؟ ومتى تَنْكَشِفُ معالمُ الحياةِ الحقيقيّةِ ومتى نحيا بقوامةٍ واستقامةٍ وسكينةٍ وسلامٍ داخليّ وخارجيّ؟!

وإلى أن ينبلجَ ذاك الصّباحُ آملاً ألّا تتساقطَ الإنسانيةُ فوقَ عَتَبَاتِ الشرّ أكثر. في قلبي وجعٌ لا بل الوجعُ استوطنَ شراييني وأنا أرتاحُ أمامَ شاشةٍ زرقاءَ تواكبُ معاركَ وانتقالَ مجموعاتٍ يقولون عنها إرهابيّةً. لا أنحازُ لأيّ طرفٍ ولكنّي مع الشّعبِ المظلومِ.

لا يهمُّ إجهاضُ ثورةِ ربيعٍ لوّنوه بالأحمرِ، ولا يهمّ من حقّقَ النّصرَ وأيُّ نصرٍمُغَلَفٍ بهزائمَ؟ وبالرّغمِ من كلّ شيءٍ، فالعودةُ محتومةٌ ولو بالانكسارِ واعتقارِ جرعاتِ الخيْبةِ والتّخاذلِ!

ومع كلِّ هذا لن تَرْجِعَ الظّلماتُ. لقد انقَشَعَتِ البصائرُ عن أمورٍ لا يمكن أن تُقْبَلَ بعد الآن: الانحناءُ، الذّلُ، الاستعبادُ والفَزَعُ من تعذيبِ العسكرِ واستقواءِ المخابراتِ.

من الطّبيعيّ أن يتكالبَ العالمُ بقادتِه المجانين وقوتِه اللّوجوستيّةِ على شعبٍ تَفَتّتَ وانقسمَ وتَشَتّتَ. ومنهم من يَعِشْ الخلافةَ وفي كتابِ التّاريخِ ومنهم من يردُ العلمانيّةَ والعولمةَ ومنهم لا يعرفُ ماذا يريدُ.

وها هي أوراقُ الياسمينِ فوق منضدتِه يحملُها كأنّها طفلٌ مُدَلّلٌ أو عزيزٌ يُسْعِدُه.

ويقرأُ ويقرأُ ولا يتركُها إلّا إذا حَصَلَ طارىءٌ أو ناداه واجبٌ.

من مذكراتِ الحبيبةِ الرّاحلةِ، يقرأ بِنَهَمٍ:
أَوَ تعلمُ يا عزيزي كم هو حجمُ المصيبةِ اليومَ في وطنِنا وأهلِنا وحياتِنا. لقد بتنا نعيشُ تحتَ المِجْهَرِ وأيُّ أمرٍ لا يمكنُ إلّا أن نغاليَ فيه وفي ارتداداتِه وانعكاساتِه علينا، أفراحُنا وأتراحُنا باتَت سيّانُ والأخطرُ أنّك تسمعُ زغاريدَ في كلّيهما وبكاءً وعويلاً أيضًا. وترى الرّقصَ والصّلاةَ معًا وتَسْتَشْعِرُ الجمودَ والتّحجّرَ. فكلُّ ما يحصلُ نزيدُ عليه ونوصلُه إلى بعيدٍ ونحمّلُه مالا يُحَمَّلُ وما لا يُحْمَدُ عُقْباه.
لا أنصحكُ بالعودةِ، ابقَ مكانَك فأنتَ أيّها الثّائرُ دومًا وأبدًا لن تَمْلِكَ عصًا سِحريّةً ولن تكون المهديَّ المُنْتظَرَ.

العولمةُ، يا صاحبي، طاغيّةٌ وإن اعْتَرَفْنا أو اخْتَبَأْنا خلفَ الخِنْصَرِ وادّعَيْنا غيرَ ذلك.

أَوَتَذْكُرُ كم كنا نتأثّرُ لحزنِ جيرانِنا وكيف كنا نغني ونَطْرَبُ لأفراحِ قريبٍ لنا.

كانوا يعتقدون أنّنا أهلُ الفرحِ وكذلك أهلُ الحُزْنِ.

اليومُ يبالغون ولكن سرعان ما يرمون وراءَهم أمرَهم باحثينَ عن جديدٍ.

يركضون ويلهثون ولا يطالون لا ماءً ولا يقفون فوقَ ترابٍ، هكذا هم أجيالُنا.

دعْك من اليومِ هو أسودٌ عسى الغدُ يكونُ مُشِعًّا والأمسُ كان ولا يزالُ مُضيئًا.

في داخلِنا وفي بصماتِنا وفي طرائقَ وثقافةِ عيشِنا.

عندما تُجْرَحُ في وجدانِك وتتَكَلَّمُ من قَلبِك وتَجِدُ ربّاً رحيماً يسانِدُكَ والعالمُ كلّه ضدُّكَ والكونُ ومافيه أخصامُك، صدّقْني تكون أنتَ من أحفادِ الرّسلِ والأنبياءِ.

اصبرْ عليهم إذا ما قرّرْتَ العودةَ وعامِلْهم كلّاً حسب قدراتِه وزَعْزِعْ بأسَهم وبَدّلْ يأسَهم آمالًا، وجدّدْ طموحَهم ودعْهم يعملون... فما جَعَلَنا نُحْبَطُ غيرُ الكسلِ وقصورُ اليديْن والتّفكيرِ.

لا زلتُ أبحثُ عن ذلك الشّعورِ القويّ الذّي كان يرافِقُنا وعن تلك اللّبِنةِ التّي بَنَيْتُ فوقَها شخصيتَنا. هل كنا على كوكبٍ آخرٍ يا تُرى؟ أم أنّنا كنا هنا فوقَ الأرضِ نرضَى ونوازي بيْنَ شَغَفِنا لحياةٍ أفضلٍ وبين حركاتِنا وثوراتِنا وإلى حينِ نَيْلِ استقلالِنا ووضعِ أنفسِنا على دروبِ البِناءِ ؟!
لا أُخْفيكَ صُدِمْتُ عندما شاهَدْتُ عزيمةً صلبةً في عينيْك واستشعرْتُ تصميمَكَ على محاولةِ تغييرِ أَنْفُسٍ ضَلّتْ سواءَ السّبيلِ.

وهي المحاولةُ الأخيرةُ قبلَ أن يَنْفَرِطَ عقدَ الياسمينِ ويَتَحَوّلَ إلى بقعةٍ لرميّ النّفاياتِ وللحروبِ وللآفاتِ وللأوبئةِ والعلّلِ.

وبما أنّك رَجِعْتَ كما أخبرتَني، فلا تتوانَ عن قضاءِ استراحتِك المعهودةِ بين أوراقي؛ فمنها مكتوبٌ بقلبي ومنها ببناتِ أفكاري ومنها بأنامِلِكَ ووجدانِكَ.

لن أخافَ على وطني ولن أَخْجَلَ منه وسأحيا بقيةَ أيّامي أُناصرُ قضايا الشّعوبِ العربيّةِ وأُتابعُ انفعالاتِها وأصرّحُ عن غباءِ السّياساتِ المتّبَعةِ! إذ لا يُعْقَلُ أن نُصَنَّفَ بعالمٍ ثالثٍ وأن نكونَ ساحاتٍ لتفريغِ الأسلحةِ ولتحقيقِ مصالحِ الغربِ.

معك، يا صديقي، دعواتي ويا ليت القدرَ ينصفُنا لنكن معًا!
هكذا نحن، كُتِبَ علينا أن يكونَ اللّقاءُ في المطاراتِ وأن نحملَ الأوطانَ في حقائبَ وأن نُبَدّلَ الهُويّةَ بجوازاتِ سفرٍ، وأن نسجّل بدل أرقامِ قيْدِنا رُتَباً غريبةً: لاجئاً، نازحاً، مستوطناً، مُحْتَلاً أوأرهابيّاً أصوليّاً داعشياً...ولا يمكن أن تكون إلّا على هويةِ العربيّ المسلمِ.

لا تَكِلْ ولا تَمِلْ، سيقضي اللهُ لنا حياةً مكتملةً طيّبةً للخدماتِ العامّةِ والسّياحةِ والسّفرِ ونصرًا مبينًا ولو كَرِهَ الأميركانُ والصّفرُ والرّوسُ والحمرُ المُسَيّطِرةُ. سنخرجُ من شرنقاتِنا ونطيرُ ونُحَلّقُ ونجعلُ من فصولِنا كلّها ربيعًا مُزْهِرًا نسيمُه عليلٌ وسماؤهُ صافيةٌ.

أعلمُ أنّك تنتقي من أوراقِ الياسمينِ ما شئتَ دونَ الرّجوعِ الى نظامِ التّسلسلِ، فأنا أحبُّ فيك هذه الفوضى الرّشيدةَ. ليس مهمًا فأنت قَرَأْتَني قبلَ سطوري وتحفَظُ تفاصيلي وما عدا ذلك لا يعدو كونُه صغيرًا.

كم كنا نتناقشُ ويعلو الصّوتُ ونصرخُ مدافعينَ عن أشياءَ، اليومُ لا قيمةَ لها ولا وجودَ أصلاً اندحرَتْ، ذَهَبَتْ واخْتَفَتْ.
وأحنُّ إليها لأنّها منا من أعماقِنا وأصالتِنا.
لا وجودَ اليوم لأمورٍ مهمةٍ نسيَها إنسانُنا وتشبّثَ بالتّفاهاتِ وبالبِدَعِ وبالنّذالةِ.

العربيُّ اليومَ كارهٌ لعروبتِه، كافرٌ بدينِه، مُتَطَلِّعٌ إلى الغربِ كقبلةِ خلاصِه من شتاتِ أيامِه. وها هو الغربُ يُشَوّهُ الإسلامَ ويُصَدّرُ إلينا نماذِجَ وحشيّةً تَذْبَحُ الإنسانَ كالنّعجةِ وتُعَذّبُه كالقطةِ وتُمْعِنُ بالإجرامِ وكلَّها لا علاقةَ للمسلمين بها ولا للإسلام صلةٌ بها.

قضيتُكَ يا صديقي، تَحَوّلَتْ إلى قضايًا شائكةً لم تَعُدْ فلسطينُ قضيّةً أساسيّةَ فعليًّا وأصبح العدوُّ منتشرًا في عروقِنا وفي أزقةِ مدنِنا.

تَوارِدُ أفكارِنا، يا عزيزي، مُنْتَجٌ عربيٌّ أصيلٌ واختلافُ آرائنا إعلانٌ غربيٌّ قويّ.

أَطَلْتُ ولم أُسْهِبْ ولكن باللهِ عليك احكِ لهم عن حياتِنا وذكّرْهُم بكنوزِنا وترابِنا. والسّلامُ وتمامُ المهمةِ بنجاحٍ وفّقك اللهُ فهو معك فيما ستُعانيه.
كَتَبْتُ كلماتي على مقعدي في صالةِ الانتظارِ وأنت واقفٌ شريدٌ تُفَتِشُ عني، عساني أَجَدْتُ وأَصَبْتُ وأَتْمَمْتُ مهمتي وحبّي وصَوّبْتُ نحو عائلتي أُكْمِلُ معها

روتينًا مُميتًا وأيّامًا ثقيلةً. عُد إلى الوراءِ في القراءةِ وتقدّمْ إلى الأمامِ في العملِ، يَلْزَمُنا عقودٌ كي نُمَهّدَ للإصلاحِ الدّاخليّ والخارجيّ على السّواءِ.

من حبيبةٍ مسافرةٍ إلى حبيبٍ عائدٍ وفي جعبتِه وقلبِه وطنٌ،
إن كُنْتُ أبغي الجمالَ والحسنَ والرّاحةَ والحياةَ، فأنت تَعْدِلُها كلَّهاوتزيدُ...! كيف لا؟ وأنا أتنشقُ عِطرَكَ وأنظرُ من عينيْكَ وأتذوّقُ ملامحَ وجهِكَ وأُجاوِرُ نبضاتِ قلبِكَ وأرحلُ في شرايينِكَ وأطيرُ مع روحِكَ. لن أدعوَكَ الحبيبَ ولن أناديَكَ باسمِكَ، ستبقى لي وطناً عظيماً حدودُه لا متناهيةٌ وعلمُه قلبٌ، شعارُه أُحِبُكَ أَعْشَقُكَ أهواكَ! أُحِبُكَ ملءَ الكونِ وأعشقُكَ مثلَ الرّوحِ وأهواكَ قصائدَ غزلٍ تتفنّنُ في إذاعةِ هَمَسَاتِ نَفْسي وصرخاتِها في التّعبيرِ عن رباطٍ مُقَدّسٍ لن يباركَه شيخٌ بعمامةٍ ولا محامٍ بثوبٍ، مُبارَكٍ من اللهِ وبعونِه نُتَمّمُ رسالاتِ العطاءِ ونُعْلِنُها للبِناءِ، لِلفَرَحِ وللإبداعِ.
كلّي لكَ يا وطني، قلبي وقلمي، كلّي لكَ يا مهدي ويا لغتي ولساني. كلّي لكَ يا أرضي ولَحْدي.

لا تَحْزَنْ إن مِتُّ فالحبُّ لا يموتُ وأنا على يقينٍ من ذلك. سوف أختارُكَ هناك في الجنّةِ رفيقِي الدّائمِ إلى الأبدِ.
لا حربٌ ولا سَفَرٌ سيمنعُني عن شوقي. ولا بَعْدٌ ولا خَفَرٌ سيجعلُني أنسى حبّي مع الإصرارِ والتّأكيدِ وأنا، كنْتُ يومها، صبيةً جميلةً فهل سيتغيّرُ حبُّكَ إذا ما خَرْبَشَتْ السّنون فوق وجهي تجاعيداً وإذا ما اجتاحَ الأبيضُ ناصيتي ورأسي وحنى الزّمانُ عودي وتَرَهّلْتُ وصِرْتُ عجوزًا؟!

أنا أراك دومًا شابًا مُشْرِقًا ذو هَيْبةٍ ووَقارٍ، وأَنْظُرُ إليك وأَرْفَعُ رأسي بمجردِ رؤيتِكَ.

هل سنجتمعُ يومًا ويكونُ اللّقاءُ مباشراً بعد انقضاءِ العمرِ ورحيلِ الشّبابِ؟

لم يَمْسِكْ نَفْسَه ففتحَ اللّابتوبَ وراحَ يَخُطُّ للحبيبةِ كلماتٍ ليسَتْ كالكلماتِ...

رأيتُكِ ولن أُلاحظَ لا الأبيضَ ولا تجاعيدَ وَجْهِكِ. بَهَرْتِني بحضورِكِ، بِلباقتِكِ، بتلكَ المشاعرِ التّي لا تزالُ تَلْمَعُ فوقَ وَجْنَتَيْكِ وعلى شِفاهِكِ.

صَدّقيني إذا ما قُلْتُ وبدون غلوٍّ أنتِ اليومَ أحلى وأجملُ بأصالتِكِ، بِأناقَتِكِ وبرجاحةِ حبّنا.

ما كان بيننا كبيرٌ لدرجةِ أنّه باقٍ ومديدٍ، لدرجةِ أنّه مستمرٌ وعالٍ علوَّ الجبالِ وفسيحٌ كالكونِ...

لا تنظري للقِسمِ الفارغِ من الكأسِ. ها نحن نَنْعَمُ بالقِسْمِ الباقي وبكلّ امتنانٍ ورضًى.

حبيبتي إن كُنْتُ أنا وطَنَك فأنت لي كونٌ في دنياي وجنةٌ في آخرتي.

حبيبتي لا تَحْرُميننني من وصالِكِ فأنا بدونه يابسٌ جامدٌ، مخلوقٌ صخريٌّ حَجَريٌّ.

دمتِ لي حبيبةً منذ الأزلِ ولو أنّ الشبابَ يبقى معنا أكثرلكنْتُ خَطَفْتُكِ وأَبْقَيْتُكِ بجانبي نرتوي من الذّكرياتِ ونُجَمّلُ الأيّامَ ونمضي ولكن هو الزّمنُ أقوى مني و أقدرُ مني. أرجو أن لا تقطعي الإتصالَ. اكتُبي لي أولا تكتبي فأنا أمامَ مهمةٍ رائعةٍ: قراءةِ كنوزِكِ وجواهرِكِ...

"ورودُ بساتينِكَ زينَتِي
ورحيقُ أزهارِكَ عطري
عُمْقُ نظراتِكَ مرآتي
ونبضُ قلبِكَ سَكَني

ملكةُ أفكارِكَ حُلْمي
رؤيا أيّامِكَ حياتي.

فلا تَكِلْني لسُطوري
ولا تُشَمّت فيّ حروفي
كُوني ديواني قصائدي

للمدحِ والفخرِ والغزلِ
المتنبّي واليازجي وعُمَر.
وأنا التّي ملءُ الكونِ تحبّ
ومَعَكَ تَطيرُ وتَغْرَقُ

وبكَ تسيرُ وتَسْبَحُ.
وتُحَلّقُ في الفضاءِ
وتُسْبِرُ أغوارَ البِحارِ"

الباب الثّاني عشر

دَخَلَ الحفيدُ إلى البيتِ قاصدًا غرفةَ الجلوسِ حيث صوتُ المِذْياعِ القديمِ يَصدحُ بصوتِ أمّ كلثوم، وبسخريةٍ وقحةٍ، ضَحِكَ وقالَ:

-"يا جدّي العزيز أَوَلم تُنْسِكَ عواصمُ العالمِ أغاني الزّمنِ الجميلِ، كما يدّعون، أو لغتَك العربيّةَ؟ وما زال فيك من الشّبابِ ما يجعلُكَ تَطْرَبُ وتَتذّكرُ وتَدْمَعُ عيناكَ لكلماتِ العشقِ والغرامِ؟"

-"جِئْتَ مُتَأَخِرًا! هل سُرِرْتَ مع أصدقائِكَ وبِرَقَصاتِكُم وجنونِكم وارتكابِكم أفعالاً حيوانيّةً؟"

-"لا يا جدّي، صدّقْني أُجاريهم في جنونِهم ولكن ما يزالُ في رأسي عقلٌ يفكّرُ وفي قلبي التزامٌ ومبادىءٌ. أتفقُ مع السّاقي هناك لِيضعَ لي بَدَلَ الكحولِ مشروبًا غازيًّا، وأصدقائي يأخذون بناتِ الهوى معهم أمّا أنا فمستحيلٌ أن أقومَ بأعمالِهم الطّائشةِ ولكن إذا لم أسهرْ معهم يُطْلِقون علينا صفاتٍ مخيفةً ويُلْصِقون بي اتهاماتٍ باطلةً"

-"لا يا جدّي، أنت من يجبُ أن لا يُخفي ما يقومُ به ويجدرُ بهم أن يخجلوا"

-"صدّقْني يتباهون بأخطائِهم وشواذاتِهم".

-"ما الذّي يُجْبِرُكَ على مرافقتِهم؟"

-"كلّ الجوّ موبوءٌ يا عزيزي!"

- "معكَ حقٌّ ولا نَمْلِكُ لهذا الجيلِ لا نفعًا ولا إيجابيَّة"

-"دعكَ منا، و أخبرْني هل ما زلتَ على وعدِكَ لي بأنّكَ ستقرأ عليّ رسالاتِ الحبّ من حبيبتِكَ الأولى والأخيرةِ بحسب زعْمِكَ؟"

-"كِدْتُ أنامُ ولأنّني وعدتُكَ سابقاً بقيتُ سهرانًا، ولكن سوف ألخّصُها وأُسْرِعُ في القراءةِ"(هههههه)

-"لا لن أقبلَ، أريدُ أن أستمعَ إليها كاملةً دون اجتزاءٍ!"
الجدُّ يقرأُ من أوراقِه الياسمينيّةِ[...]

ممّا لا شكَّ فيه أنّ الإنسانَ العربيَّ هو إنسانٌ من أعضاءِ الأسرةِ البشريّةِ الذّين يتساوون بالحقوقِ. وللأسفِ لا زالَ يعاملُ على أنّه إنسانٌ من العالمِ الثّالثِ إذ إنّه لا يحقّ له العيشُ فو قَ أرضِهِ ولا الإفادةُ من الثّرواتِ الموجودةِ فيها. ولا زالَ ورقةٌ

يلعبون بها، هم لم يُلغوا حقوقَه بل مَحَوْها واعتبَرُوه مادةً للتّداولِ في أروقةِ السّياساتِ العالميّةِ الآنيةِ ووطنُه ساحةٌ لتقاسمِ الغنائمِ.

وكلّ ذلك فقط لجهلِ الإنسانِ العربيّ بحقوقِه ولتنازلِه عنها وعن المطالبةِ بها.

وها هي المنظمةُ العالميّةُ لحقوقِ العربِ تُبْصِرُ النّورَ بهمةِ القيّمينَ عليها وبجهدٍ من سفيرِ السّلامِ العالميّ.

لو أنّهم يدركون أنّ السّلامَ ركنٌ من أركانِ ثقافةِ عيْشِنا؛ إذ إنّ السّلامَ عليكم ورحمةَ اللهِ واجبٌ علينا إفشاؤها فيما بيننا وإلقاءَ السّلامِ عليكم لجميعِ النّاس بدونِ استثناءٍ ولا تمييزٍ.

وها هو العالمُ اليومَ يُمْعِنُ في تناسي حقوقِنا وذلك، أولاً بالتّعدّي على أرضِنا وتهجيرِ المواطنين الآمنينَ بحِجَجٍ واهيةٍ منذُ التّاريخِ. وها هي فلسطينُ تَكادُ تُنسى من الخارطةِ العالميّةِ ومن الذّاكرةِ الإعلاميّةِ الدّوليّةِ والعربيّةِ.

وإذا ما اعتمدْنا على قانونِ الأمّمِ المتّحدةِ في إعلانِ حقوقِ الإنسانِ، نرى البنودَ تختلفُ تمامًا عن الآداءِ فالتّمييزُ واضحٌ في مختلفِ المجالاتِ.

يُمنَعُ العربُ من أن يكونوا أقوياءً؛ لا سلاحٌ يفوقُ السّلاحَ الذّي تَقْتَنيه إسرائيلُ وحتّى لو أرسلوا المنصاتِ لا نُعطى الصّواريخَ، وهذا مثلٌ صغيرٌ فدليلُ التّوازنِ اليومَ هو أن تحميَ الدّولُ أنفسُها ومع ذلك نحن نُراهِنُ على السّلامِ العالميّ الشّاملِ الخالي من الرّصاصِ ومن الذّريّ والنّوويّ.
فالجهادُ عندنا مرتبطٌ بنشرِ الدّعوةِ واليومُ هناك سُبُلٌ مفتوحةٌ للنّشرِ ولا يستطيعُ أيٌّ كان منعَنا مِن نشرِ تعاليمِ الدّينِ لمن يرتأون ذلك. ولكن لنبدأْ بأنفسِنا! لنَكُنْ مثالًا يُحْتَذَى به كي نصبحَ، من جديدٍ، قِبْلَةَ العالمِ! هذا حلمٌ يجبُ أن يرافِقَه عملٌ جبّارٌ.

ومن منطلقِ تعزيزِ الرّابطِ الإنسانيّ بين شعوبِ العالمِ، ها نحن نمدُّ أيدينا لأهلِنا في الوطنِ العربيّ ونرفعُ أصواتَنا في العالمِ لنُثْبِتَ أنّ لنا حقوقاً وأنّه واجبٌ أن نلتزمَ بها وأن نُجْبِرَ العالمَ بإعطائِنا إياها. العربُ إذا ما أُعطَوا الحقوقَ أبدَعوا بإنجازاتٍ تصِلُ بالأرضِ إلى آفاقٍ لا حدودَ لها. ولا يُقارنّ أحدٌ العربَ والإسلامَ بداعشٍ، لهم دينُهم ولنا دين!

والإدراكُ التّامُ للحقوقِ تجعلُ العربيّ يُطالبُ بها أكثر ويحافظُ عليها ولا يتنازلُ عنها أبداً. لنقرأْ شُرعةَ حقوقِ الإنسانِ ولنبدّلَ الغيّ والظّلمَ بالعِلْمِ أَوَلسْنا أحفادَ العلماءِ والأنبياءِ.

لماذا لا نزرعُ أرضنَا؟ ولماذا لا نصنعُ حوائجَنا؟ ولماذا لا نكونُ قدوةً في هذا العالمِ والشّمسُ في يمينِنا والقمرُ في يسارِنا وترابُنا ذهبٌ؟!

أولاً وأخيراً لأنّنا تخاذَلْنا وتكاسَلْنا ورضينا بأن نكونَ قَوْمٌ تُبّعٌ نستهلكُ نفاياتِ العالمِ ونكونَ وطناً للصّراعاتِ وللقتالِ ولسفكِ الدّماءِ.

وأنا أخطُّ تلكَ الكلماتِ تَخْنُقُني عَبَرَاتي؛ فأنا عربيّةٌ وتشدُّ النّقمةُ أناملي فعاطفتي قويةٌ من هَوْلِ ما يرتكبون على أرضِ العربِ وخاصة ٍفي سوريا ولكنّ الإنسانَ العربيّ هو وحدُه الملامُ. فليستيقِظْ وليُحَصّنْ بيتَه وليوصِدْ أبوابَه في وجهِ الطّامعين وليُعْلِنْ أنّه على مستوى الإنسانيّةِ وأنّه ليس داعشيًّا ولا إرهابيًّا.

"يولدُ جميعُ النّاسِ أحراراً متساوين في الكرامةِ والحقوقِ، وقد وُهِبوا عقلاً وضميراً وعليهم أن يُعامِلَ بعضُهم بعضاً بروحِ الإخاءِ." وليس انفعالاً ولكن هل فعلاً نحن العربُ متساوون مع الغيرِ في الكرامةِ والحقوقِ؟ كيف وكرامةُ العربيّ في وحولِ الفسادِ والاقتتالِ والرّضوخِ والهروبِ من الهُويّةِ. وماذا عن حقوقِه؟ واللهِ تخجلُ مني الحروفُ؛ فماذا أقولُ لكلّ طفلٍ قضى شهيداً تحت قصفِ الطّائراتِ الإسرائيليّةِ والرّوسيّةِ؟ وماذا أقولُ لأطفالِنا الأحياءِ؟ هل أخبرُهم بأنّهم أرقامٌ وأعدادٌ وهكذا ينظرُ إليهم العالمُ القويُّ المستبدُّ بنا؟ ولكنّ العملَ الشّائنَ يلزمُه عرضٌ وقبولٌ وها نحن مستسلمون ونَجْهَرُ بالقبولِ فقط لأنّنا عاجزون حتّى عن مجابهةِ العالمِ بحجَجٍ داحضةٍ وقويةٍ وثابتةٍ. فنحن العربُ مَن يليقُ

بهم قيادةُ العالمِ وأن يكونوا قوةً تقلبُ كفةَ الموازين في كلّ القراراتِ وذلك ليس على اللهِ بعسيرٍ، فهو مَن خَلَقَنا وجَعَلَنا أمةً وقال عنا بأنّا خيرُ أمّةٍ نأمرُ بالمعروفِ وننهى عن المُنْكَر"

-الحفيد: "ليس هذا ما توقعْتُه يا جدّي! أريدُ كلاماً في الحبّ"

-الجدّ: "أكثرُ الكلامِ حقيقةً هو الكلامُ عن الوطنِ والعُروبةِ"

-"لن أناقِشُكَ، سأترُكُ مناقشةَ تلكَ المفاهيمِ لوقتٍ آخر، هاتْ حدّثني بما تطيبُ له النّفسُ ويُرْقِدُ القَلْبَ"

الحبُّ ديني والعِشْقُ مذهبي والهوى قلمي. أنا أمارسُ طقوسي وأقدّمُ حروفي وأرقُصُ مع جُمَلِي في فضاءِ الجَمالِ ومع نسماتِ الخيالِ! أُداعِبُ الغيومَ وأُلاعِبُ النّجومَ وأُناشِدُ حرّاسَ السّماءِ، يا ملائكةَ الرّحمنِ، اطردوا عنا الشّياطينَ بالنّيازكِ والشُّهُبِ ودعونا نَنْعَمُ بقوةِ الإيمانِ ونَتَسَلّحُ بصلابةِ الأيّامِ. واتركوا لنا مسافاتٍ كي نطيرَ مع أحلامِنا سواءً لامَسَتْ الشّمسَ أو دَغْدَغَتْ ورقَ الزّهرِ أو بَقِيَتْ على الأرضِ. هي ذخائرُنا تأخُذُنا من أحزانِنا وتَنْتَشِلُنا ممّا نتخبّطُ فيه من بشاعةٍ وقُبْحٍ وشناعةٍ .

أحلامي الذّهبيّةُ تجعلُني من السّلاطينِ وتقولُ لي: أيّتها المجنونةُ العاشقةُ، لقد نِلْتِ شرفَ الإبداعِ! ها أَنْتِ، إنسانٌ، يُحَلّقُ دون أجنحةٍ ويَسْبَحُ بلا زعانفٍ ويمشي على الأرضِ ورأسُه يسابقُ النّجماتِ ويصِلُ إلى أبعدِ مكانٍ. فتحيي الزّمانَ وتتلو القرآنَ وتَعْجَبُ من ظلمِ بعضِ البشرِ وتندهشُ لاتساعِ رحمةِ اللهِ رغم تقصيرَك، فأنتَ إنسانٌ غَرِقَ ببحورِ النّعَمِ وبقيَ يُلِحُّ على ما في خياله: تتَمنى فتُعْطى، تَطْلِبُ فَتَأْخُذُ، تطمعُ وتبغي الأكثرَ وخزائنُ ربّكَ لا تَفْرغُ ولا تَنْفَدُ. وعندما تُصابُ بمَصَابٍ جَلَلٍ، تَتَذَكّرُ ربّكَ وتُكْثِرُ الدّعاءَ والصّلاةَ. وإن نجّاكَ سَرَحْتَ ومَرَحْتَ ونَسيتَ أن تَعْتَبِرَ أو أن تَذْكُرَ إلَهكَ في الفرَحِ كما في الحُزْنِ.

لا تَكْتَئِبْ ولا تَتَجَهّمْ، ربُّكَ ليس بحاجةٍ إليكَ إنّما أنتَ من يحتاجُه في كلّ نَفَسٍ، ومع كلّ قطرةِ ماءٍ وفي كلّ أمورِ حياتِكَ وحتّى في مماتِكَ. ولن أقولَ تَوَقّفْتُ عن أحلامي وإنّما رَويْتُها من إيماني واتخَذْتُ من غُرْفَتي زاويةً كي أتَعَبّدَ وأَتَبَجّلَ وأدعوَ اللهَ، وبإخلاصٍ، أن يغفرَ لي ولإخواني وأن يُقَوّيَ لي ديني ويُثَبّتَني على أفعالي ويَتَقَبّلَ مني أعمالي. فأنا لا أمْلِكُ إلّا أن أَتَعَبّدَ للرّحمنِ بقلمي ودَواتي وعلى أوراقي، عساني أُحَقّقُ أمراً. يا الله! أنا قلمٌ يَكْتُبُ عِظاتٍ وعِبَراً مليئةً بالحبّ ومُفْعَمَةً بالحياةِ وتفيضُ بالإيمانِ وتزيدُ الإنسانَ معرفةً وإلهامًا وكلُّ ما يَخُطُّهُ قلمي وأناملي يشهدُ أنّه لا إلهَ إلّا الله وأنّ محمّدًا رسولُ اللهِ قولًا وفعلاً، لا تَعَنُّتًا وتَصَلُّبًا أوتَشَدُّدًا وإرهابًا.

اللهَ ما أروعَ العبدَ عندما يُقِرّ إنّك أنتَ الإلهُ! وما أجملَ الحياةَ إذا ما أيقَنَ المرءُ أنّكَ الرّحمنُ. ولا حرجَ بالفنِ أو الأدبِ أوالإبداعِ إذا ما وَضَعْنا نُصُبَ أعيُنِنا أنّنا ضيوفٌ على هذه الأرضِ وسَنُكَرَّمُ برحمةِ اللهِ وسننجو بأفعالِنا ونزيدُ من حسناتِنا ونمحو بعضاً من سيئاتِنا ونحيا أحلى حياةٍ ونعيشُ بكلّ ما أُعْطينا من طاقةٍ لنُواجِهَ الأيّامَ.
الحفيد: "حتّى في العشقِ والهوى تكتبون عن السّياسةِ، يا جدّي العزيزَ، والدّينِ؟!"

الجد: "أُحِبُّكَ!

أُحِبُّكَ لأنّكَ وطنُ الجميعِ.

وطني الحبيبُ على أوراقي تَتَبَعْثَرُ الكلماتُ وفي فضائِكَ تَتناثَرُ المشاعرُ.
وليسَ لأنّكَ هُويّتي فحسب ولكن لأنّكَ أحلامي وكلُّ آمالي.

فَقَدْ أَخَذْتُ منك الفخرَ والعزّةَ ورَفْعَةَ الانتماءِ.

مَنَحْتَني المعرفةَ والعِلْمَ.

أُحِبُكَ يا وطني كلّما أشرقَتْ شمسٌ وتَنَفّسَ صُبْحٌ جديدٌ.

أُحِبُكَ بأناملي وشرياني، بأقلامي ومحابري وبكلّ أُمْنِياتي.
يُجْمِعونَ أنّكَ وطنٌ للجمالِ، وأنا أنتمي إلى ترابِكَ الطّاهرِ وأسيرُ بيْنَ سهولِكَ وأودِيَتِكَ وسواحِلِكَ المُمْتَدّةِ.

وطني الحبيبُ غلبَتْ كلَّ مشاعرِ الحبّ هذا اليومَ مشاعرُ حُبّكَ. أَشْعُرُ بالفرحِ والسّرورِ يحلقان بي بيْنَ مُدُنِكَ وقراكَ، بين جَبلِكَ وبَحْرِكَ! جِهاتُكَ جُمِعَتْ يساراً صوبَ القلبِ فَبِتَّ نبضٌ لكلّ حيٍّ ... وأشعرُ بالبهجةِ.

تَسْتَحِقُّ أن تكونَ منارةً للأوطانِ. شعبٌ عظيمٌ وقائدٌ حكيمٌ ولو أنّنا ما زلنا نَحْلُمُ.

وطني الحبيبُ بلغةٍ تَمْلِكُ حصانةَ الخالقِ، لغةِ القرآنِ والأنبياءِ، باللّغةِ العربيّةِ الفصحى أحبُكَ يا وطني!

كلُّ الكلماتِ وكلّ الحروفِ وكلّ المعاني تكادُ تكونُ مُتَلَعْثِمَةً إلّا كلماتُ الحبِّ لك تكادُ تخرجُ دون أن أمنحَها الإذنَ بالخروجِ.

تنحني همساتُ الشّوقِ وتُعْلِنُ تمرّدَها من خواطري شوقًا إليكَ وهي على ترابِك تُحَلّقُ مغرّدَةً:" وطني سأمنحُكَ كلَّ مفرداتي، كتاباتي، كتبي، مشاعري وأحاسيسي".

لا بدَّ يا وطني من أن تسيرَ يومًا تختالُ بينَ الأوطانِ وتغارُ منكَ سائرُ البلادِ.
وطني الحبيبُ أحببْتُكَ.

وسَأبْقى أحبَّكَ بعد موتي. وسأُعَلّمُ أبنائي حبَّكَ ولغاتِ عِشْقِكَ ووسامةَ إشراقِكَ.

رسالتي إليكَ اليومَ، يا وطني، رسالةُ شوقٍ برغم تواجدي على ترابِكَ النّقيّ؛ فأنا أتنفسُ أشواقَكَ وحبَّكَ وعِشْقي لكَ.

فقط امنحني الفرصةَ تلوَ الفرصةِ كي أُثْبِتَ لكَ ولائي، فأنت أَحَبُّ من حياتي.

فهل تَقْبَلُ روحي وقطراتِ دمّي التزامَ عهدٍ ووفاءٍ لكَ مني؟
وسأحيا عمري أُحِبُّكَ مع كلّ نَفَسٍ ومع كلّ نَبْضٍ يا وطني".

الحفيد:" يا جدّي العزيزَ، أريدُ أن تقرأَ عليّ رسالةَ حبٍّ! لِمَ تعطيني دروسًا في الوطنيّةِ؟ أريدُ الغَزَلَ والعِشْقَ".

الجدّ: اسمَعْ يا بنيَّ! التَجَأَتِ الرّوحُ إليكَ، طافَتْ حولَ بيتِكَ، دَخَلَتْ كالنّسماتِ، زارَتْ كلَّ ناحيةٍ وكلَّ مكانٍ تَطَأُ قَدَمَكَ أو فيه رذاذٌ من عِطْرِكَ، والْتَأَمَ الجَمْعُ، أنا وأنتَ والحبُّ، غَزَلٌ وعَسَلٌ وشَهْدٌ وقصيدةٌ رائعةٌ على شاطئِ بحرِ الهوى وبوزنِ أطنانٍ من الذّهبِ الأصفرِ اللاّمِعِ البرّاقِ.

وحَضَرَتْ جِنِيّةٌ راقصةٌ، جدائلُ شعرِها حبالٌ مُدَلّاةٌ، تَتَمَايلُ مثلُ الحيّةِ وتتماوَجُ بخفةٍ ودلالٍ، آخِذَةً منا الأحلامَ فنصحو على أرضٍ تحتَ شجرةِ التّفاحِ حُفاةً، عُراةً تَغَطّينا الأوراقُ، تَخْجَلُ حبّاتُ التّرابِ وتلومُنا على الإسرافِ وعلى القبولِ والإذعانِ لغانيةِ الأشعارِ.

رحماكَ ربي لم أَخُطّ بيديّ قدري، ولكن سوفَ أكتبُ أنا ما تُمْليهِ عليّ، إن شئتَ تَرَكْتُه ومَشَيْتُ وإن شِئْتَ تَشَبّثْتُ به وعانقْتُه وبقيتُ معه، نُحاورُ ونَكْتُبُ رسائلَ الحبّ والغرامِ سطورًا من نورٍ وأوراقاً من حريرٍ مصقولٍ.
نتهادى الأيّامَ ونُطَوّعُ الزّمانَ ونَنْشُرُ الجمالَ ونَرْفَعُ الإبداعَ حيث أغمِسُ قلمي بدَواتِكَ وتكتبُ حروفَكَ فوقَ جبيني ونتابعُ:

تشرقُ الشّمسُ لعينيْكَ ويتهادى القمرُ لأجلِكَ، ينبُتُ الزّهرُ لقلبِكَ ويُثْمِرُ الشّجَرُ لكَ، وتُزَقْزِقُ العصافيرُ لِتُطْرِبَكَ، وتجري الأنهارُلِتَنْعَمَ بخريرِها، وينبضُ الفؤادُ من شراييِنكَ. هي حياتي مُلكُ يمينِكَ، فلا تُعِرْ إبليسَ اهتمامَكَ وأَسْقِطْ عني تهمةَ انزالِكَ من الجنةِ!

ها نحن فيها نرتعُ ونحيا بيْن النّعيمِ من رَطِبِ الكلامِ وسِحْرِ الأَحاسيسِ وصِدْقِ المشاعِرِ وكلّ ما يليقُ بالحبّ الكبيرِ."

الحفيد: "هذا كلامٌ رائعٌ! وهذا هو الحبُّ يا جدّ. سوف أطلبُ من هذا الكثيرَ، هل يوجدُ بعد؟"

الجدّ: "طبعًا، طبعًا ياعزيزي!"

الباب الأخير

وخَلَعَ الجدُّ عنه لباسَ التَّعَبِ وشَمّرَ عن ساعِدَيْن مُرْتَجِفَيْنِ وشَرَعَ يَخُطُّ سيرَتَه الذّاتيّةَ ليَتَعَرَّفَ أحفادُه على شَخْصيتِهِ بأنامِلِه المُرْتَجِفَةِ مبعثراً أوراقَهُ كلَّها وأوراقَ الحبيبةِ الياسمينيّةِ والرّسائلَ وكلَّ حَرْفٍ وُجِدَ في حقيبتِه أو درجِ مكتبِهِ.

وقَعَدَ خَلْفَ اللّابتوب ُيُنْجِزُ مهمتَه بحماسةِ شابٍ عشرينيٍّ وحكمةِ شيخٍ فوقَ الثّمانينَ خريفاً.

-الاسم: إنسانٌ، مواطنٌ مسالمٌ، هواهُ شرقيٌّ وعشقُه عربيٌّ وحبُّه لبنانيٌّ. تَعَلَّمَ في مدارسِ الدّولةِ الحكوميّةِ ومن ثُمّ أتمَّ دِراسَتَه الجامعيّةَ في كليّةِ الهندسةِ.

أحبَّ إنسانةً لم يُكْتَبْ له الزّواجُ منها. تزوّجَ من أميركيّةٍ من أصولٍ عربيّةٍ فلسطينيّةٍ وتحديدًا قُدُسِيّةٍ.

أَنْجَبَ من الأولادِ ثلاثةَ عَشَر، إذ إنّه يَعْتَبِرُ أولادَها أولادَه وكلُّ الأبناءِ أُخوةٌ. هي مُتَزَوِجَةٌ سابقًا وتُوُفِيَ زوجُها السّابقُ. تَعَرَّفَ عليها في العملِ وتَزَوَجا ورَبَيا أجملَ

عائلةٍ من الذّكور ثمانيةٌ ومن الإناثِ خمسةٌ أو كما يحلو لزوجتِه أن تقولَ: "كفٌّ مريمَ بناتُنا وعلامةُ النّصرِ شبابُنا".

ورَجَعَ قِسْمٌ منهم إلى الوطنِ ومنهم من فَضّلَ العَيْشَ في أميركا وفي أوروبا وعلى امتدادِ العالمِ الغربيّ. إلى أن قَرَرْتُ العودةَ بعد وفاةِ زوجتي والحبيبةِ الثّانيّةِ وكانت تعرِفُ مالكةَ قلبي وحبيبتي الأولى وأخبارَها وقِصَتَنا وحكايانا...

-الهُويّةُ: يهوديٌّ مسيحيٌّ ومُسْلِمٌ عربيّ حتّى الرّمقِ الأخيرِ. إنسانٌ إلى أقصى مدًى ولغتي عربيّةٌ ولساني ينطقُ كلَّ لغاتِ العالمِ.

جوازُ سفري أجنبيّ وهُوِيَّتي عليها أرزةٌ حمراءُ باهتةٌ ما زالت تَتَصّدَرُ مِحْفَظَةَ جَيْبي وأَفْخَرُ بها.

-وضعي العائليّ: عاشقٌ لامرأةٍ حسناءَ، أنيقةٌ شاعرةٌ ومسافرةٌ وزوجٌ لامرأةٍ حَمِلَتْ القضيةَ كما حَمَلَتْ أولادَها الثّلاثةَ عَشَر. رَبَتْها وكَبَّرَتْها كما رَبَتْهم وكَبَّرَتْهم، تَعْتَبِرُها الولدَ الرّابعةَ عَشَرَ وأحيانًا بكلّ أولادِها وليس غريبًا على قُدُسِيّةٍ مُتَعَصِّبَةٍ لترابِ فِلَسْطِينَ ومُتَشَدّدةٍ في قرارِ إنشاءِ دولةِ فِلَسْطِينَ عاصمُتها القُدُسُ الشّريفُ.

ولم تَمُتْ برحيلِها القضيةُ بل عاشَت مع كلّ نَبْضِ حياةٍ في أحفادِها وفي كلّ الأوطانِ العربيّةِ والغربيّةِ على السّواءِ.

-عودتي إلى ربوعِ وَطَني: هي لا تُشْبِهُ عودةَ ابنٍ ضالٍ و إنّما كأنّها عَوْدَةُ المُظَفّرِ والفائزِ والقابضِ على وِسامِ الوَطَنيّةِ بقَلَمٍ من رَصاصٍ.

-لقاءاتي: كلُّها ذاتُ منفعةٍ خاصةٍ وعامةٍ وبعضُها كان مَقْتًا وشِدّةً و إلحادًا والعياذُ باللهِ.

أما عن أوضاعِ وطني فكلُّها لا تُبَشِّر بالخيرِ. لن أُطيلَ ولن أُسْهِبَ ولن أنْبَسَ بنتِ شَفَةٍ. لقدْ قَرَرْتُ ألا أقومَ بأيّ عملٍ أو أتكلمَ إلّا بإيجابيّةٍ فالوطنُ لا يحتملُ الكَيْديَّةَ ولا المحاسبةَ ولا أيّ شيءٍ يؤذي المشاعرَ الإنسانيّةَ الاجتماعيّةَ السّياسيّةَ البيولوجيّةَ والبيئيّةَ والنّفسيَّةَ والمذهبيّةَ والدّينيّةَ...

-أحبائي: كلُّ ناطقٍ بالعربيّةِ وساكنٌ فوقَ الأرضِ العَرَبيّةِ ويَتَنَشّقُ هواءً عربيّاً ويرتوي من مياهٍ عربيّةٍ ويَنْتَشي بنورِ الشّمسِ الشّرقيّةِ، ويَتَفَيّأُ بظلالِ الأرزةِ الخالدةِ، أو بظلالِ الشّجرِ الأخضرِ الوارفِ، ويَأْكُلُ من قمحِ بَيَادِرَنا الذّهبيّةِ، ويَمْتَطي فرساً بيضاءَ أصيلةً ويُناجي البدرَ ويَهْمِسُ للنّجومِ ويتأرجّحُ حُلْمُه مع الغيومِ.

-رسالتي: لكلّ عربيٍّ طفلٍ صغيرٍ، ستكبُرُ وتَحْكُمُ وطنَكَ بالجرأةِ والحَزْمِ والعَدْلِ وتزرعُ ثقافةَ العيشِ وتَنْشُرُ سياسةَ الحياةِ الحقيقيّةِ، ستكونُ باختصارٍ الزّعيمَ والمواطنَ ومِحْوَرَ الكونِ.

-دربي: تأليفُ كتبٍ وإصدارُ أوراقِ الياسَمينِ ليُخْبِرَ الورقُ بمَكْنوناتِ نَفْسي ويرسُمَ لي حُلْمي ويُلّوِنَ كلماتي ويُعَزّزَ طُموحي ولو كنتُ فوقَ الثّمانينَ.

-هدفي: أن أبقى حيًّا حتّى أرى أمّتَنا العربيّةَ واحدةً بأوطانٍ متعدّدَةٍ، خريطتُها واسعةٌ وأراضيها مُزْدَهِرَةٌ وشعوبُها آمنةٌ مطمئنةٌ. كفانا ذلاً وكفانا تنازلاً وكفانا هروباً!

-الحفيد: "سلامتُك يا جّدي! ما تقولُه يُلزِمُنا فوقَ أعمارِنا أعماراً كي نمشيَ خطوةً واحدةً على دروبِ النّجاةِ"

-الجدّ: "قلْتُ لكَ لا تَيْأَسْ. الأملُ دائمًا صاحٍ ورحلةُ الإصلاحِ تبدأُ بخُطْوَةٍ واحدةٍ سرعان ما تليها عشراتُ الخطواتِ ومئاتٌ وألوفٌ وملايينٌ.فلنَتَكِلْ على اللهِ فقط ونعملْ بكلّ ما أوتينا من عِلْمٍ ومعرفةٍ وثقافةٍ وقوةٍ وحبٍّ"

-الحفيد: " تتلاحمُ معكَ الوطنيّةُ بالحبِّ، لماذا يا جدّي؟!"

-الجدّ: "دعْنا نرتاحُ في طيّاتِ ورقةٍ ياسمينيّةٍ من كلماتِ حبيبةٍ مسافرةٍ بَيْنَ الشّرايينِ والقلبِ قبلَ الشّرقِ والغَرْبِ"

كلُّ شيءٍ يأخذُني إليكَ
ولا همسةُ حيٍّ
ولا نسمةُ هواءٍ
ولا خيطُ نورٍ

في الأُفُقِ
التّرابُ يصرخُ باسمي
أنا الوطنُ المحظورُ عليه
البناءُ والعيشُ والهناءُ
وممنوعٌ عليه الوفاقُ
ومُغَيَّبٌ عنه كلُّ الوفاءِ
مواطنوه قومٌ رُحّلٌ
وساكنوه عسكرٌ مُغْتَصَبٌ
ورائحةُ الموتِ منه تَفوحُ
مقابرُ صارَتْ

ووادٍ لكلّ الشّهداءِ
بلا غِسْلٍ ولا كَفَنٍ
يُدْفَنون ويُحَدّقون
في وجهِ الصّلصالِ

يَدْعون اللهَ مُخْلِصين
الذّي نجّاهُم من شرِّ
الكثيرين، من العَوْلَمِيين
المُلْحِدين العِلْمانيين

الدّواعشِ والفَواحِشِ
وكلّ ذي سِلاحٍ وفِكْرٍ

مُتَحَجّرٍ مُتَصَلّبٍ قاسٍ
ويَدّعون أنّنا معهم
شركاءٌ
ارموا كلّ أوراقِكُم

خَسِئْتُم ولَعَنَكُم اللهُ
لا حاجةَ لنا بكم
ولا لكرهِكُم وغِلِّكُم
وغُلُوّكم في الحِقْدِ

فضاؤنا وألحادُنا
زرقاءُ
وأمّا أنتم فالأسودُ
على حالِك، على غائِك
لستُم منا ولسنا منكم
احترقوا بكيدِكُم
سحقًا لكم
وهنيئاً بكم عدوَّنا
الجديدَ...

-الحفيد: "وكأنّي بها كانَتْ تُشيرُ إلى أنّ هناك أعداءً آخرين وليس الصّهاينةُ وحدُهم أعداءَ العربِ"

-الجدّ: "ممكنٌ حتّى أنّني أراها تَمْلِكُ حَدْسًا رهيبًا! لقد كَتَبَتْ بحاستِها العاشرةِ وليس السّادسةَ فحسب"

-الحفيد: "يبقى أن أُنْصِتَ لكلماتٍ في الحبّ يا جدّي تزيدُ طاقَتي وتَدْفَعُني نحو العملِ بنشاطٍ أكبرٍ"

-الجد: "هي أمانةٌ بين يديْكَ، اقرأْها ساعةَ تشاءُ. لقد تَعِبَ بصري وأُنْهِكَتْ بصيرتي ولا أَقولُ حانَ الأجلُ بل اقترَبَ الأَجَلُ ولستُ خائفًا عليكم بل سأدعو لكم بالتّوفيقِ وبكلّ دعوةٍ صالحةٍ، أن يُحَقّقَ اللهُ أحلامَكم وأن تعيشوا بوطنٍ بكرامتِكم وعُنفوانِكم وبراحةٍ وسلامٍ ولا أريدُ لكم أكثرَ"

-الحفيد: (بكى دَمْعتيْن حارتَيْن وهو يستمعُ إلى جدِّه المُتَلَهّفِ لرؤيةِ وطنِه سالمًا مُنَعَّمًا ومُحَبّاً لأبنائِه).
-الجدّ: "لا تَبْكِ ولا تُهْدِرْ طاقتَكَ بعاطفتِكَ! افسَحْ مجالاً للعقلِ وسِرْ على بركةِ اللهِ مُحَمّلاً بطاقاتٍ عظيمةٍ من الحبِّ والإيمانِ والإيجابيّةِ، فالنّارُ تُطْفِئوها المياهُ والسّلبيّاتُ تُزيلُها الكلماتُ الطيّباتُ والتّحياتُ والسّلامُ"

واتّكَأَ على مِقْعَدِه واضعًا رأسَه فوقَ عصاه كأنّي به يَتَشَبّهُ بسيّدِنا سُلَيْمانَ ويَمْتَهِنُ الحكمةَ والصّبرَ ويَتَخَيّلُ نهايتَه ويرى مأتَمَه، كأنّه فيلمٌ عربيٌّ بطريقةٍ حديثةٍ ولا مجالَ للبكاءِ أو الصّراخِ أو العويل، الدّعاءُ فقط...

وعيناهُ مثَبّتتان على لوحةٍ مُعَلّقَةٍ فوقَ الجِدارِ في الصّالةِ فيها اليتيمُ بألوانٍ باهتةٍ، كان يقولُ عنها،دوماً: "هي مرآتي عندما كنْتُ طفلاً!"

والسّلامُ على الوطنِ المُرْتَجَى والحبُّ للأحفادِ الغاليينَ والإلحاحُ بالدّعاءِ للهِ بأن يُصْبِحَ الوطنُ جنةً مُصَغَّرَةً تهفو إليه أَنْفُسُ المهاجرين والتّاركين أوطانَهم وقتَ الأزماتِ وفي خِضَمِ الأحداثِ المُتَراكِمةِ، ويَتَطلّعُ إليه كلّ إنسانٍ يُحِبُّ الحياةَ ويَهوى العيشَ الكريمَ والحُرَّ والرّغيدَ.

نهايةٌ عريقةٌ وخاتمةُ أحزانٍ وعامٍ مُظْلِمٍ دامسٍ..!
تلكَ روايةٌ خياليّةٌ بأسلوبٍ واقعيٍّ وبشخصياتٍ حقيقيّةٍ وأحداثٍ مترجمةٍ لشرقِنا العظيمِ وللإنسانِ العربيّ الحزينِ.

عَبَراتٌ لا تُشْبِهُ عَبَراتِ المنفلوطيّ وأجنحةٌ مُنْكَسِرَةٌ تُناقضُ أجنحةَ جبرانَ وأيّامٌ ليسَتْ كأيّامِ عميدِ الأدبِ العربيّ.

هي أوراقٌ ياسمينيّةٌ عليها كلماتٌ مُعَطّرةٌ بالحبّ، بالحياةِ وبالإبداعِ...

تتداولُ نبضاتِ أبجديةٍ عريقةٍ برسوماتٍ حديثةٍ ورُؤيا لا يمكنُ تحقيقُها إلّا بالأحلامِ على الأقلِّ في أيّامِنا هذه.

الحبيبةُ! الوطنُ! الأرضُ! الأصولُ! والفروعُ كلّها تُصاغُ في عَقْدٍ من الياسمينِ. إنْ لم يتفاعلوا جميعًا مع قلمِ الجدّ فلا معنًى إذن لأيّة عِباراتٍ.

لا أقولُ إلى إصدارٍ جديدٍ بل إلى حُلُمٍ مُحَقّقٍ ولو جزءٌ منه. عسانا نضيءُ شمعةً في ظلامِ الدّروبِ ونساعدُ الإنسانَ العربيّ للعبورِ نحو السّلامِ.
يستحقّ الشّرقُ جهودَ أبنائه ويليقُ به عُرْسٌ لا ينتهي وفَرَحٌ دائمٌ وازدهارٌ مُسْتَمِرٌ.

ومهما حَصَلَ ستبقَى الشّمسُ تشرقُ ذهبيّةً من شَرْقِنا وسنبقى منابرَ تَصْدَحُ خِطاباتٍ وقصائدَ وأشعاراً وكلماتٍ عن حبّ الوطنِ وكلّ ما فيه ويَحْويه.

يا وطني ولو انطفَأَتْ كلُّ الأنوارِ، ستَشُعُّ شمسُكَ على الكونِ وسَيَشُعُّ نورُكَ على الكرةِ الأرضيّةِ.

ولنُعَطّرْ أفعالَنا وكلماتِنا بعطرِ الياسمينِ ولِنُزَيّنْ أعناقَنا بعقودِ الياسمينِ ولِنَزْرَعِ الياسمينَ في حدائِقِنا وعلى شُرُفاتِنا ولنكُنْ جميعًا زهراتِ الياسمينِ الأبيضِ الخماسيّ الأبعادِ للّنظرِ وللذّوقِ وللشّمِ وللّمسِ وللهمسِ.

تَنَشّقْ عطري يا عربيٌّ واملأْ النّفسَ سحراً حريريّاً دمشقيّاً...
وامضِ فأنت بذلك مُحَصّنٌ مَحْمِيٌّ ملاكٌ طاهرٌ ورسولُ حياة...